مع
قصص البخارى

تأليف
دكتور / حلمى السيد أبو حسن
مدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر



مكتبة الإيمان بالمنصورة

مع
قصص البخارى

تأليف
دكتور / **حلمى السيد أبو حسن**
مدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الناشـــر

دار الكتاب العربى

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

صَلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد ما طلعت علينا شمس أو غربت ، ما هبّت على كوننا هذا رياح أو سكنت ، ما تحركت فينا الدماء أو توقفت .

أما بعد :

فهذه دراسة موجزة حول بعض القصص النبوية الواردة فى صحيح البخارى ، حاولت فيها التقريب لكى يسهل تناولها لدى العامة والخاصة فى وقت استهوى الناس فيه الجانب القصصى وأصبح أكثر تأثيراً من الوعظ والإرشاد المباشرين .

فشرحت هذه القصص حول فكرة جامعة جعلتها عنوانا للقصة مع توضيح الدروس المستفادة منها بشكل ميسر ، وعرض لما فيها من عناصر مهمة كالتصميم والأشخاص والحوار والزمان والمكان .

ولم يفتنى الوقوف مع النصوص ، وبيان مواطن الجمال فيها وما توحى به الألفاظ والعبارات والأدوات الرابطة من معانٍ مؤثرة ، وجمال فى الأسلوب ، وما تدل عليه الحروف بصفاتها وحركتها من زيادة فى المعنى وأثر فى التصوير والتشخيص .

وغايتى من ذلك جذب الدعاة والخطباء إلى كتب الحديث والسيرة الصحيحة **لعرض ما فيها من قصص صحيحة فيها متعة وطرافة وسمو فى الهدف وتشويق وإثارة مع صياغة قوية ليزينوا بذلك خطبهم وأحاديثهم وليكون بديلا لكثير من القصص التى نسمعها من بعضهم ولا نعرف لها مصدراً صحيحاً .**

بالإضافة إلى إشباع الرغبة البشرية عند المسلمين جميعاً فى التمتع بجانب من جوانب

الحديث الصحيح يحكى لهم ما فيه عبرة وعظة ويثير فيهم ذكريات كريمة بها يهتدى الحائرون ، ويقوى المستضعفون ، ويُفيق الغافلون .

يقول أحد الباحثين : « والقصة بصياغتها القوية نمط رائع من الأدب يؤكد أن الفن فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين حين يشيد بمبادىء الرحمة والعفة والحق والإنصاف . وإن محمداً ﷺ حين جعل الأقصوصة من عُدَده التى يغزو بها المشاعر ، ويعبىء النفوس إنما اعتمد على سلاح قوى نفاذ ، وقد أجاد استعماله بما أبدع فى قصصه من تصوير وتلوين » [١] .

هذا وإنى أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى لعمل أكبر من ذلك مع صحيح البخارى ينفعنى الله به ، ويكون خدمة للإسلام والمسلمين .

هذا وبالله التوفيق .

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين) .

د . حلمى السيد أبو حسن

بجامعة الأزهر

الإثنين غرة المحرم سنة ١٤١١ هـ

٢٣ / ٧ / ١٩٩٠ م

---

(١) د . محمد رجب البيومى : البيان النبوى ص ١٣٢ . ط دار الوفاء .

مع القصة العربية

جاء فى القاموس « قَصَّ أَثَرَهُ قَصّاً وقَصيصاً : تَتَبَّعَهُ والخبَر : أعلمه . ﴿ **فارتدا على آثارِهِمَا قَصَصاً** ﴾[1] أى رجعا من الطريق الذى سلكاه يَقُصَّان الأثر ، و ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عليك أحْسنَ القَصَصِ** ﴾[2] : نُبَيِّنُ لَكَ أحسنَ البَيَانِ . والقَاصُّ : مَنْ يأتى بالقِصَّةِ »[3] .

وقد جاءت هذه المادة ومشتقاتها فى القرآن الكريم ، وفسر القصص بما يُتَّبع ويُرْوَى من أخبارٍ وقصص[4] . وتأتى القصة استجابة طبيعية لرغبة المعبرين باللغة فى إطار هذا الجنس الأدبى ، ولم يخلُ منها أدب من الآداب العالمية .

وكان للعرب فى الجاهلية قصص متنوعة ، وكان القصص محبوباً عندهم معروفا وشائعا وقد اختلط فيه الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف وكانت تشوبه بعض الأكاذيب والمبالغات .

فلما أرسل الله نبيه سيدنا محمداً ﷺ أنزل عليه القرآن تبياناً لكل شىء ، ومهيمنا على الكتب السماوية كلها وجاءت القصة القرآنية لتصحح ماكان بعضه معروفا عند الجاهليين نحواً من المعرفة كانوا قد استقوه من مصادر متعددة ولكنها كانت معرفة ناقصة أو مشوهة مثل قصص الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام وقصص بعض الصالحين فجاءهم القرآن الكريم بهذا القصص على وجهه وبتفصيل ماكان لهم أن يعرفوه إلا من القرآن الكريم .

كما أن المشركين سألوه ﷺ عن بعض القصص . عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٤ . (٢) سورة يوسف الآية ٣ .

(٣) القاموس المحيط للفيروزابادى (قص) جـ ٢ / ٣١١ تصوير الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم ص ٥٠٨ و ص ٥٠٩ « مجمع اللغة العربية » ط دار الشروق .

محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ماليس عندنا من علم الأنبياء . **فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول** الله ﷺ ، **ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا** عن صاحبنا هذا ، **فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن** **فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى** الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ » [١] .

فهاهم قد سألوه ﷺ وكان ما كان من نسيانه أن يقول (إن شاء الله أخبركم غداً) فتأخر عنه الوحى خمس عشرة ليلة ، ثم نزلت سورة الكهف [٢] وقول الله تعالى ﴿ **ويَسْأَلُونَكَ عن الرُّوح قُلِ الرُّوح مِن أمر رَبِّى وما أُوتِيتُم من العلم إلا قليلاً** ﴾ [٣] .

كما قص عليهم القرآن أنباء كانت أحداثها ووقائعها فى الجزيرة العربية وكانت آثارهم باقية ليسيروا فى الأرض ويأخذوا منها العظة والعبرة مثل قصة سبأ وعاد وثمود ومدين وأصحاب الفيل .

وعلى هذا « فالقصة إحدى أسلحة القرآن فى الهداية والإرشاد وهى أيضا إحدى أسلحة محمد ﷺ فى الهداية وقد كان مبلغ تأثير القصة عظيماً غاية العظم فى نفوس العرب ، إذ سحروا بما سمعوا من غرائب الأولين » [٤] .

على أنه ينبغى أن يعلم الخلق جميعا أن « قصص القرآن قصص واقعى تاريخى لا خيال فيه ، ولكنه ضرب من ضروب القصص يرضى حاجة النفس ويمد الرسالة النبوية بأمثلة من القوة والصبر والعزاء » [٥] .

نعم .. فالقصص القرآنى هدى تهتدى به القلوب من الغى إلى الرشاد ، ومن الضلالة إلى السداد ، وترجو به رحمة رب العباد وصدق ربنا حيث يقول : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِم عبرةٌ لأُولى الألبابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ولكنْ تَصْدِيقَ الَّذى بَيْنَ يَدَيْهِ**

---

(١) تفسير الطبرى ١٥ / ١٢٨ وتفسير ابن كثير جـ ٥ / ١٣٢ ــ ١٣٣ .

(٢) السابق نفسه . (٣) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٤) البيان النبوى للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ص ١٢٦ ط دار الوفاء .

(٥) السابق نفسه .

وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾ (١) .

وبعد القرآن صحيح البخارى ، وقد أجمع العلماء على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى هو صحيح البخارى « أبى عبد الله محمد بن إسماعيل المولود سنة ١٩٤ هـ والمتوفى ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ هـ » (٢) وذلك لما امتاز به من منهج دقيق فى التثبت والتحرى ، ومعرفة الرجال ، والوعى التام ، وقوة الحفظ . وهو طبيب الحديث وأستاذ المحدثين .

وصحيح البخارى بحر من بحور العلم ، ملىء بالدرر ، يستسقى به الغمام ولا تستغنى عنه أمة الإسلام فهو تراث رسول الله ﷺ من قول وفعل وحكم وتقرير وخلق وسيرة . وقد نجمت فتنة فى هذا العصر تريد استبعاد السنة ، وخاضت أقلام مشبوهة تطعن فى الحديث ، وفى أئمة المحدثين وأكابر الرواة .

وهى فتنة مقصودة ذلك أننا إذا أهدرنا هذا التراث العظيم من الحديث فيجب أن تطوى صحائف العظماء كلهم وألا تؤثر عن أحدهم كلمة . كما أن هذه الفتنة تهدف إلى إضاعة الكتاب والسنة جميعا ، والإتيان على الإسلام من القواعد (٣) .

والقصة والقصص من الأمور المحببة إلى النفس ، وقد حفل صحيح البخارى بمجموعة كبيرة من هذا الجنس الأدبى ، وهى كلها حق لا مجال فيها للخيال وهادفة تقنع العقل وتمتع الوجدان ، وهى إذا اتضح مغزاها النبيل أعمق المسارب الإنسانية إلى الهداية والتوجيه .

وقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً . فما خرج من فمه إلا ما هو حق ، وما كتم شيئا مما أمره ربه بتبليغه ، ولقد زكّاه الله تعالى فى القرآن الكريم ﴿ **والنَّجْم إذا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وما غَوَى . وما ينطق عَنِ الهَوَى . إنْ هُوَ إلَّا وَحْىٌ يُوحَى** ﴾ (٤) .

وقد وقعت للنبى ﷺ أحداث قصها الصحابة ، ونقلها الرواة وصحت عند البخارى فأودعها كتابه القيم ، كما صح أيضا قصص حَدَّث به ﷺ عن بنى إسرائيل .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٢) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب جـ ٩ / ٤٧ ووفيات الأعيان جـ ١ / ٤٥٥ وتاريخ بغداد جـ ٢ / ٤ ـــ ٣٦ .

(٣) انظر مستقبل الإسلام خارج أرضه للشيخ محمد الغزالى ص ١٦٢ .

(٤) سورة النجم من الآية ١ إلى الآية ٤ .

وهذان النوعان هما فرعا القصة النبوية كما يتضح لنا من دراسة صحيح البخارى . وقد آثرت تسميتها قصة كما صنع البخارى فى عدة مواضع من كتابه ، وكما فعل ابن حجر فى فتح البارى .

ويرى الدكتور رجب البيومى أنه « إذا أردنا الدقة الفنية فلنقل (أقصوصة) لا قصة ، لأن علماء هذا الفن يطلقون الأقصوصة على القصة القصيرة التى يعالج فيها الكاتب جانبا من الحياة لا كل الجوانب » (١) .

ولكن تسمية السابقين لها أولى ، ولا نحب أن نخضع قصة الحديث لمقاييس نقاد القصة والمسرح المحدثين ، إذ بين القصة النبوية والقصص البشرية الأخرى بون شاسع .

فهى قصة لها طابع خاص طالت أم قصرت ، كما أن كلمة (الأقصوصة) مولدة (٢) . والمصطلح الأصيل أولى .

على أن الغاية من القصة النبوية ــ بلا شك ــ أنها قصص هادفة ووسيلة من وسائل الإقناع والتأثير . ونحن فى حاجة شديدة إلى دراسة فنية شاملة للقصة فى كتب الحديث وإلى إحلالها فى المجال التربوى ــ وبخاصة فى المؤسسات التعليمية الأولى ــ محل كثير من القصص التى تهدم ولا تبنى ، وتفسد ولا تصلح ، وتصبغ الحياة صبغة تتنافى مع غايات الدين وأهدافه .

---

(١) البيان النبوى ص ١٢٧ .

(٢) راجع المعجم الوسيط جـ ٢ / ٧٦٨ معجم اللغة العربية بمصر ط الثالثة .

القسم الأول

مما ذكر عن بنى إسرائيل

مع الذين تكلموا فى المهد

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثةٌ عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجلٌ يقال له جُرَيْجٌ كان يُصَلِّى ، فجاءته أُمُّه فَدَعَتْهُ ، فقال أجيبها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صَوْمَعَتِه ، فتعرَّضَتْ له امرأةٌ وكَلَّمَتْهُ فأبى ، فَأَتَتْ راعياً فأمكنته من نفسها ، فولدتْ غلاماً ، فقالت من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبُّوه ، فتوضأ وصلَّى ، ثم أتى الغلامَ فقال : من أبوك يا غلامُ ؟ قال : الراعى ، قالوا : نبنى صومعتك من ذهبٍ ؟ قال : لا ، إلَّا من طين . وكانتْ امرأةٌ ترضع ابناً لها من بنى إسرائيل فمر رجلٌ راكبٌ ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثَدْيَها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يَمُصُّه قال أبو هريرة : كأنِّى أنظر إلى النبى ﷺ يَمُصُّ إِصْبَعَهُ ، ثم مَرَّ بِأَمَةٍ فقالتْ : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فَترك ثَدْيَهَا فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت لِمَ ذَاكَ ؟ فَقَالَ : الراكبُ جبَّار من الجبابرة ، وهذه الأَمَةُ يقولون سَرَقْتِ زَنَيْتِ ولم تفعلْ » (١) .

دراسة وتحليل :

تصور هذه القصص الثلاث نماذج لظلم الأبرياء فى الكون حين يعز الدليل ، ويصدم الناس إن تعاطف بعضهم مع المظلوم فتكون المعجزة والكرامة بنطق من لا ينطق فى العادة وقت الحادث ولكن نطقه يحمل براءة تتردد دائما فى أذن البشرية عذراً ونذراً .

وقد جمع الحديث ثلاثة ممن تكلموا فى المهد وأولهم سيدنا عيسى عليه السلام الذى وردت قصته فى القرآن مفصلة فى عدة مواضع والذى ثبت تكلمه فى المهد بنص القرآن الكريم حينما كانت أمه السيدة مريم عليها السلام « تقاسى الآلام النفسية المبرّحة وتتعاورها

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ / ٢٠١ ــ ٢٠٢ وحديث جريج وحده فى البخارى كتاب المظالم جـ ٣ / ١٧٩ « باب إذا هدم حائطا فليبن مثله » ومع اختلاف يسير فى البخارى كتاب العمل فى الصلاة جـ ٢ / ٨٠

المفردات :

المومسات : جمع مومسة وهى الزانية الفاجرة .

أمكنته من نفسها : سلمت له جسدها ليفعل بها الفاحشة .

الصومعة : بناء مرتفع أعلاه محدَّد .

شارة : هيئة حسنة ومنظر جميل يشار إليه .

الأحزان وتنتابها الوساوس ، وتمضى أكثر أوقاتها منفردة كئيبة ، لا يهنأ لها عيش ولا يطيب لها طعام ولا شراب ، وكثيراً ما كانت ترى شاردة الفكر ، موزّعة النفس ، لا تصغى إلى حديث ، ولا تعنى بأمر » (١) .

ذلك وهى حامل تعانى ما تعانيه الحوامل بالإضافة إلى ما تخافه من اتهام الناس لها ، ورميهم إياها بما هى منه براء فهى التى درجت على عبادة الله وتقواه .

وهنا تأتى المعجزة فـ « الله أنطق لسان ذلك الصغير وأطلق الصوت من تلك اللهاة التى لَمّا يكتمل تكوينها بعدُ ، وحَرّك تلك الشفاه التى لمّا تهتدِ إلى موضع الأثداء ، فالتفت الغلام موجّها إليهم الخطاب فى وضوح وبيان ، ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجّهوه إلى أمه من لوم ، أو يجادلهم فى تهمتهم التى ألصقوها بتلك البارّة » (٢) بل ﴿ **قالَ إنى عبد الله آتانى الكتابَ وجعلنى نبيًّا . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيّاً . وبَرّاً بوالدتى ولم يجعلنى جبّاراً شقيّاً . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حَيّاً** ﴾ (٣) .

أما جريج العابد فكان رجلاً من بنى إسرائيل يعمل بالتجارة فيزيد مرة وينقص أخرى فقال : ما فى هذه التجارة خير ، لألتمسن تجارة هى خير من هذه ، فبنى صومعته وترهب فيها ، وذلك يدل على أنه كان من أتباع سيدنا عيسى عليه السلام ، وكان بعده لأنهم الذين ابتدعوا الرهبانية وحبسوا أنفسهم فى الصوامع (٤) .

جاءته أمه التى كانت تأتيه فتناديه فيشرف عليها ويكلمها ، ولكنها هذه المرة تأتيه وهو فى الصلاة فتحير أيمضى فى صلاته أم يكلمها ؟ لقد نادته قائلة : « أىْ جريج أشرف علىَّ أكلمك ، أنا أمك » فأبى أن يجيبها ، لقد اختار صلاته .. على أن بعض الأحاديث تذكر « أنها جاءته ثلاث مرات تناديه فى كل مرة ثلاث مرات » فحدث نفسه واختار الصلاة ولم يرد عليها وقد ورد « لو كان جريج عالماً لعلم أن إجابة أمه أولى من صلاته » أى من نافلته فله أن يقطعها ، ذلك أن الله أوصى بالوالدين خيراً ، وبر الوالدة ألزم يقول ربنا سبحانه ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر**

---

(١) قصص القرآن للأستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين ص ٢١٢ ط بيروت .
(٢) السابق ص ٢١٥ .
(٣) سورة مريم من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٣ .
(٤) انظر فتح البارى جـ ٦ / ٥٥٤ .

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (١) .

إن أم جريج قد تأثرت وهى ذات دعوة مقبولة ، وإن لرجل قد انقطع للعبادة فهو ينظر فى ملكوت الله ، يعبد الله بكل جوارحه فلا تنظر عينه إلى معصية وها هى أمه تقول : « أبيت أن تُطْلِعَ إلىَّ وجهك ، لا أماتك الله حتى تنظر فى وجهك زوانى المدينة » وها هى الدعوة تستجاب فى الحال مما ينذر البشرية بخطر غضب القلوب وبخاصة قلب الأم والأب .

وفى مجلس من مجالس بنى إسرائيل ذكروا عبادة جريج وترهبه فى صومعته ، وانقطاعه عن الخلق ، فعرضت عليهم بغى أن تفتنه فقالوا لها نعم ، فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها وسواء كانت هذه راعية غنم أم بنت ملك القرية خرجت من دار أبيها بغير علم أهلها متنكرة وكانت تعمل الفساد إلى أن ادعت أنها تستطيع أن تفتن جريجاً واحتالت وخرجت فى زيها وادعت ذلك ولكنه أبى واستعصم ، فأمكنت راعى غنم من نفسها فحملت وظلت هكذا إلى أن انقضت أيامها فولدت غلاماً وسئلت ممن هذا ؟ فقالت : من صاحب هذا الدير وتلك الصومعة ، من جريج الذى يدعى العبادة .

سبحان الله (وقد خاب من افترى) ، ثم كيف يكون ذلك والرجل راهب يعبد الإلـٰه ، وهو صرورة لا يتزوج النساء ثم هو فى صومعته ؟!! فقالت : نزل إلىَّ من صومعته فأصابنى .

هنا ضجت القرية بمن فيها « وذهبوا إلى الملك وأخبروه فقال : أدركوه فأتونى به ، فأقبلوا بمساحيهم وفئوسهم إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره . فجعل يسألهم : ويلكم ما لكم ؟ فلم يجيبوه ، فلما رأى ذلك أخذ الحبل فتدلى » .

لقد سبّوه وضربوه وشتموه وقالوا له : إنك زنيت بهذه ، وقال له الملك : ويحك يا جريج ، كنا نراك خير الناس فأحبلت هذه ، اذهبوا به فاصلبوه » .

إن الرجل فى حيرة ، لقد خرج من بيت العبادة ودار الاعتزال ليخالط الناس هذه المرة مُقَابَلاً بالشتائم والبذاءات ، ولكن الصبر هو ديدن الصالحين ، لقد قالوا له : إنك مُرَاءٍ تخادع الناس بعملك ، « ومرُّوا على بيت الزوانى فخرجن ينظرن فتبسم » .

نعم لقد أدركته دعوة أمه ، وأصابته بهذه المحنة القاسية ، إن الرجل واثق من براءته

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

ولكن ما المخرج ؟ وأين البينة ؟ وماذا يفعل المتهم أمام داعرة تدعى ــ ولا تستحى ــ أنه زنى بها وهذا هو الدليل . لقد سألهم جريج أن ينظروه فأنظروه فرأى فى المنام من أمره أن يطعن فى هذا الأمر وأن يغمز الغلام بإصبعه والناس شهود قائلا : من أبوك يا غلام ؟ فيجيب الغلام : أبى راعى الغنم .

لقد برأ الله جريجاً من هذه التهمة التى ألصقت به ، والتى كان وراءها جمع من الناس أغاظهم وكادهم أن يعبد جريج ربه وأن يخلو فى صومعته فدبروا له هذه المكيدة ونسوا أن الله يدافع عن الذين آمنوا ، لقد أعظم الناس أمر جريج ، ورأوا الغلام وهو ينطق وهو يرضع من ثدى أمه ، أنطقه الذى أنطق كل شيء فسبَّحوا وعجبوا ، وعرضوا على جريج أن يبنوا له صومعته لبنةً من ذهب ولبنةً من فضة ، ولكنه أبى « وقال : لا إلّا من طين » « فردوها فرجع فى صومعته وضحك ، فقالوا له : بالله مم ضحكت ؟ فقال : ما ضحكتُ إلا من دعوةٍ دعتها علىَّ أمى » .

لقد أحسَّ بطل هذه القصة بخطأه ، وندم على ذنبه ، وعرف أن الله معه وقد أراد أن يطهره من حقوق العباد . وهذا حق يبدو صغيراً وهو عند الله كبير ، وليعطينا درساً نافعا فى بر الوالدين وإيثارهما حتى على صلاة التطوع ، وكان يمكنه أن يخفف فى صلاته ويجيبها ، فذلك قلب الأم دائما وعند الخلق جميعا مشغول بذريته إذ يبدو من القصة أن أم جريج كانت تشتاق إليه فتزوره وتقتنع برؤيته وتكليمه .

ثم يأتى هذا الغلام الأخير فى الحديث ليتكلم فى المهد إرشاداً إلى ما هو خير وبيانا لانخداع الناس بكثير من المظاهر ذلك أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الخيال الظاهر فتخاف سوء الحال بخلاف أهل الحق فوقوفهم دائما مع الحقيقة الباطنة فلا يبالون بالمظاهر ، ويكونون مع ذلك أهل سريرة حسنة .

ولنا فى القرآن المثل الأعلى فى بيان هذا المبدأ فى حديثه عن قارون وبيان موقفين متناقضين ثم كشفت الأحداث عن سلامة النظرة التى صدرت عن أهل العلم والتقوى . يقول الله تعالى : ﴿ **فخَرَجَ على قومه فى زينتهِ قال الذين يُريدُونَ الحياةَ الدنيا ياليتَ لنا مِثلَ ما أوتِىَ قارون إنه لذو حظٍ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمِل صالحاً ولا يُلقَّاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تَمَنَّوْا مكانه**

بالأمسِ يقولون ويكأن الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمن يشاء من عباده ويقدِرُ لولا أن منَّ الله علينا لَخَسَفَ بنا ويكأنه لا يُفْلِحُ الكافرونَ . تِلْكَ الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُرِيدونَ عُلُوًّا فى الأرضِ وَلا فَسَاداً والعاقبةُ للمتقين ﴾ (١) .

فالعاقبة الحسنة والمآل الطيب لمن اتقى الله تعالى وأخذ الوقاية بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه .

ذلك الذى ألهم الحقيقة فى مهده فمَرَّ الرجل الذى يشار إليه بالبنان وتمنت أمه أن يكون مثله يرفض ، ذلك أنه جبار فى الأرض مصيره الخسف ونهايته النار ، وتمر المظلومة الحبشية الزنجية فيقولون لها « سرقتِ ولم تسرق ، زنيتِ ولم تزنِ » إنها تصرخ قائلةً : حسبى الله ، إنها فى حالة مهينة ومن هنا تمنت أم الرضيع ألا يجعل الله ابنها مثلها ، ولكنه يترك الثدى وينظر إليها ويدعو الله أن يكون مثلها ، ويعرِّف أمه الحقيقة .

وإذا كان هذا الحديث قد اقتصر على هؤلاء الذين تكلموا فى المهد لحكمة بالغة فقد وردت حالات أخرى بأحاديث منها الصبى الذى كان فى حادث الأخدود « وقال لأمه : يا أماه قَعِى ولا تقاعسى فأنت على الحق » فقد كان ابن سبعة أشهر . وشاهد يوسف ، والصبى الرضيع الذى كانت أمه ماشطة فرعون لما أراد فرعون إلقاء أمه فى النار فقال لأمه : « اصبرى يا أمه فَأَنَا على الحق » (٢) .

وهؤلاء جميعا إنما كان نطقهم أمراً غريباً لكى يكونوا حجة على الناس .

ويكون الحصر فى الحديث الذى معنا مخرّجاً على أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة . أو اقتصر عليهم لحكمة تخفى علينا .

وهذه القصص مليئة بالعظات والعبر وهى مع إيجازها كما هى سمة قصص الحديث تصل إلى درجة الإشارة والتصرف فى التراكيب بما يغنى عن العبارة فهى تُحَمِّل الكلمة ألواناً من المعانى تقوم مقام الفصل الكامل من القصص العادى ، ثم تحملها من الطاقات الدالة على أنحاء شتى ما يدل على فصاحته ﷺ ثم تصنع ذلك بالحرف وحده . ونرى ذلك فى حرف الفاء هنا (فجاءته أمه فدعته .. فقال .. فقالت .. فتعرضت له امرأة .. فأبى .. فأتت راعيا .. فأمكنته .. فولدت غلاماً .. فأتوه فكسروا صومعته ... فتوضأ

(١) سورة القصص من الآية ٧٩ إلى الآية ٨٣ .

(٢) انظر فتح البارى جـ ٦ / ٥٥٣ .

وصلّى » إلخ .

فانظر معى كم من المعانى والعبارات قد طويت فى سرد القصة وقام حرف الفاء بحق التعبير عنها أبين ما يكون التعبير .

ذلك أن المعنى فى تفصيله قد اتضح فى شرح القصة . ومن ذلك (فولدت غلاماً) فيه حذف تقديره فحملت حتى انقضت أيامها فولدت غلاماً . وقوله (فقالت من جريج) تقديره : فسئلت ممن هذا ؟ فقالت : من جريج ، وهكذا .

وإذا كانت القصة فى غالبها تشير إلى المغزى والهدف فلا تذكر اسما كما فى قصة المرأة وابنها أو أحد ممن ذكر فيها فهى أحياناً تذكر الأسماء مثل سيدنا عيسى عليه السلام ، وقصة جريج .

ونرى رسول الله ﷺ يستحضر الحالة الماضية كوسيلة قوية من وسائل الإيضاح ليعلم المعلمين فى كل زمان ومكان إلى أثر ذلك فى تثبيت المعلومات وترسيخها ويؤكد أبو هريرة ذلك فى قوله : « كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يَمُصُّ إصبَعَهُ » .

قصة أصحاب الغار

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة رهط [(١)] ممن كان قبلكم حتى أَوَوْا المبيتَ إلى غارٍ فدخلوهُ فانحدرتْ صخرةٌ من الجبلِ فَسَدَّتْ عليهم الغارَ فقالوُا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرةَ إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، فقال رجلٌ منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أَغْبِقُ [(٢)] قبلهما أهلا ولا مالا ، فَنَأى بى فى طلب شيءٍ [(٣)] يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غَبُوقَهُما فوجدتهما نائمين ، وكرهت أن أَغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدىّ أنتظر استيقاظهما حتى بَرَقَ الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك ففرِّجْ عنا ما نحن فيه من هذه الصخرةِ فانفرجتْ شيئاً لا يستطيعون الخروج . قال النبى ﷺ : وقال الآخَرُ اللهم كانتْ لى بنتُ عَمٍّ كانت أحبَّ الناس إلىَّ فأردتُها عن نفسها فامتنعتْ منى حتى أَلـمَّتْ بها سَنَـةٌ من السنين [(٤)] فجاءتنى فأعطيتُها عشرين ومائةَ دينارٍ على أن تُخَلِّىَ بينى وبين نفسها ففعلتُ حتى إذا قَدَرْتُ عليها قالتْ : اتّقِ الله ولا تَفُضّ الخَاتَمَ إلا بحقه فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها ، فانصرفتُ عنها وهى أَحَبُّ الناس إلىَّ وتركتُ الذهبَ الذى أعطيتُها . اللهم إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ عنا ما نحن فيه . فانفرجتْ الصخرةُ غير أنهم لا يستطيعون الخروجَ منها . قال النبى ﷺ وقال الثالثُ : اللهم إنِّى استأجرتُ أُجَرَاءَ فأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الذى له وذهبَ ، فثَمَّرْتُ أجره حتى كثُرَتْ منه الأموالُ ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أدِّ إلىَّ أجرى فقلتُ له : كُلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بى ، فقلتُ إنى لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستَاقَهُ فلم يتركْ منه شيئاً ، اللهم فإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُجْ عنا ما نحن فيه فانفرجتْ الصخرةُ فخرجوا يَمْشُونَ » [(٥)] .

---

(١) (ثلاث رهط) وفى رواية (ثلاثة نفر) والمعنى واحد فالرهط والنفر مادون العشرة من الرجال .

(٢) غَبَق الرجلَ : سقاه الغبوق وهو شرب اللبن بالعشى .

(٣) فنأى بى فى طلب شىء يوماً » وفى رواية « نأى بى ذات يوم الشجر » وفى أخرى « فإن الكلأ تناءى علىَّ » أى المرعى بعدت ، والمراد من هذا كله أنه استطرد مع غنمه يوماً إلى أن أبعد عن مكانه زيادة عن العادة فلذلك تأخر . برق الفجر : أضاء .

(٤) ألمت بها سنة من السنين : أصابها قحط . لا تفض : لا تكسر ، والخاتم : البكارة .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الإجارة جـ ٣ / ١١٩ ــ ١٢٠ والمزارعة جـ ٣ / ١٣٨ ــ ١٣٩ وكتاب الأنبياء =

دراسة وتحليل :

تجرى سفينة الحياة بخلق الله جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، ويتعرضون جميعاً للضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والصحة والمرض . فهم دائما فى أحوال مختلفة كاختلاف الكون بين ليل ونهار ؛ ونور وإظلام ، وصيف وشتاء ، وحرارة وبرودة .

وإذا كان الخلق يتعرضون دائما للمصائب والنوازل والكوارث فإنه لا يستفيد من النوازل ولا يثاب عليها إلا المؤمنون . يقول ﷺ : « ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غَمٍّ حتى الشوكة يُشَاكَها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه » (١) .

ذلك أن المؤمنين يعلمون أن الأمور تجرى بمقادير ، وأنهم دائما ليس لهم ملجأ إلا الله سبحانه وتعالى فهم يسألونه ويدعونه ويعلمون أن « الدعاء هو مخ العبادة » . فإذا ما وقعوا فى شدة وكرب لجأوا إليه سبحانه ، وتوسلوا إليه بأعمالهم الصالحة فهى رصيدهم عند ربهم ، ولا يكشف السوء إلا هو يقول سبحانه : ﴿ **أمن يُجيبُ المُضْطَرّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ويجعلكم خلفاءَ الأرضِ أإلٰه مع الله قليلاً ما تَذكرون. أمن يهديكم فى ظلماتِ البر والبحر ومن يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بين يدى رحمته أإلٰه مع الله تعالى الله عَمّا يُشْرِكُونَ . أمن يَبْدَؤُ الخلق ثُمّ يُعيدُه ومَنْ يرزقكم من السَّمَاءِ والأرضِ أإلٰهٌ مع الله قُلْ هاتوا برهانكُم إنْ كنتم صَادِقِين** ﴾ (١) .

وتأتى قصة أصحاب الغار عقب قصة أصحاب الكهف عند البخارى إشارة إلى ما قيل إن الرقيم المذكور فى القرآن هو الغار الذى أصاب الثلاثة فيه ما أصابهم .

لقد خرج هؤلاء الثلاثة يرتادون لأهليهم فدخلوا هذا الغار فسقط على الغار صخرة من الجبل سدت فم الغار فانطبق عليهم بابه . ومن يدرى لعل هذا الحجر قد هبط من خشية الله ليغلق عليهم باب الغار ، ولكى تأخذ البشرية درساً عظيماً فى التوسل إلى الله تعالى بصالح العمل وقت الكرب حين يضيع الأمل وتُسْتَبْعَدُ النجاة عند البشر ، « فقال بعضهم لبعض : عفا الأثر ، ووقع الحجر ، ولا يعلم بمكانكم إلا الله ادعوا الله بأوثق

= جـ ٤ / ٢٠٩ ــ ٢١٠ مع اختلاف يسير فى رواياته .

المفردات :

فثمرت له أجره : استثمره حتى كثر .

فاستاقه : ساقه وجرَّه كله .

(١) البخارى كتاب الطب جـ ٧ / ١٤٨ ــ ١٤٩ .   (٢) سورة النمل من الآية ٦٢ إلى الآية ٦٤ .

أعمالكم » « فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه » .

لقد نظر كل واحد منهم إلى عمل صالح عمله مخلصا لله تعالى ، وهنا فكروا وأعادوا شريط الذكريات ليروا أعمالهم الصالحة وهى تضىء الصفحات فنظروا إلى أصفاها وأشدها ضياء ونوراً .

فقام الأول : ودعا الله تعالى بما هو أعلم به منه ، وهو توسله ببر والديه أبيه وأمه فقد كانا ضعيفين كبيرين ليس لهما خادم ولا راع ولا ولى غيره فكان يرعى لهما بالنهار ويأوى إليهما فى الليل ، ولا ينسى هذه الليلة حين نأى به ذات يوم الشجر فاستطرد مع غنمه فى الرعى إلى أن أبعد عن مكانه زيادة عن العادة فأبطأ وتأخر فحلب لهما اللبن الذى يشربانه عشاء وكان من بره بهما ألا يسقى زوجته وأولاده أو أى إنسان قبلهما .. لقد وجدهما نائمين وكره أن يوقظهما ولبث هكذا واقفا والقدح فى يده حتى بزغ الفجر فسقاهما فشربا غبوقهما .. ولم يبال بصبيته الصغار الذين كانوا يصيحون بالبكاء بسبب الجوع .. فها هو قد فعل ذلك براً بوالديه وقياماً بحقهما وإحساساً بأن عليه لوالديه دينا لا يمكنه سداده كله .. وما فعل فهو قليل بجانب الواجب عليه .

لقد لجأ إلى الله تعالى قائلا : « اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه » .

نعم هذا عمل مقبول عند الله تعالى فقد انفرج من الصخرة ثلثها إن ما انفرج من الصخرة لا يستطيعون الخروج منه .

وهنا وقف الثانى : وتوسل إلى الله تعالى بترك الفاحشة لقد هيئت له مع من كان يحبها وجلس منها مجلس الرجل من زوجته فلما ذكرته بالله تعالى قائلة : « اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » أحس بخطأه ، وعرف أن الشيطان زيّن له الأمر ووسوس له فى الصدر فأفاق من غفلته ولم يتعد حدّ ربه ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ (١) .

نعم لماذا اتبع خطوات الشيطان ؟ ولماذا استغل حاجة بنت عمه حين جاءتها ظروف قاهرة ؟ وإذا كان قد أعطاها مالا ضخما مائة دينار من الذهب أو زاد هو عشرين ديناراً على المائة لكى يغريها .. فها هى قد راودها عن نفسها فامتنعت .. وها هى تسوقها

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

الحاجة والضرورة .. وها هو رجل . وهى أنثى ناقصة عقل ودين ولكنها تناديه فى آخر اللحظات .. وتذكره بخالق الأرض والسماوات قائلة : « اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » .

لقد كانت بكراً عذراء ، أرشدته إلى ما هو أفضل أن يزيل بكارتها حلالاً ولا يقربها إلا بتزويج صحيح .

وهل هناك أفضل من الحلال ؟! تقول الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضى الله عنها : « ما تَمَتَّع الأشرارُ بشىءٍ إلا تَمَتَّع به الأخيارُ وزادوا عليه رضا الله تعالى » .

على أن الإيجاز فى الحديث قد طوى كثيراً من المشاهد واختصر الحوار ليعطينا المغزى والغاية الدقيقة المجملة .

ذلك أنه قد ورد قوله : « فلما أمكنتنى من نفسها بكت ، فقلت : ما يبكيك ؟ قالت : فعلت هذا من الحاجة ، وقالت : أذكرك الله أن تركب منى ما حَرَّم الله عليك ، قال : فقلت : أنا أحق أن أخاف ربى » (١) .

نعم لقد خافت ربها فى الشدة فكيف لا يخافه هو فى الرخاء ، لقد خاف ، وتاب وأناب ورجع إلى الله تعالى مستغفراً من ذنبه نادماً على عزمه ، وترك الدنانير وها هو فى هذا الموقف العصيب يدعو ربه قائلاً : « اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها » .

ووقف الثالث : فدعا الله تعالى بعمل عظيم حدث له حين اتخذ أجراء يعملون عنده فأخذ كل أجير أجره إلا واحداً ، وكان أجره يسيراً وهو فَرَقٌ من أرز أعنى ثلاثة آصُع (٢) من أرز لقد عرض الرجل عليه حقه فرغب عنه . ولكن لماذا ؟ لقد ذهب الرجل غاضباً لتقسيم الأجور إذ ورد قول هذا الرجل فى بعض الروايات « كان لى أجراء يعملون فجاءنى عمال فاستأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم ، فجاء رجل ذات يوم نصف النهار فاستأجرته بشرط أصحابه فعمل فى نصف نهاره كما عمل رجل منهم فى نهاره كله فرأيت علىَّ فى الذمام أن لا أنقصه مما استأجرت به أصحابه لما جهد فى عمله ، فقال رجل منهم : تعطى هذا مثل ما أعطيتنى ؟ فقلت : يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك ،

---

(١) انظر فتح البارى ٦ / ٥٨٩ .

(٢) آصع جمع صاع .

وإنما هو مالى أحكم فيه بما شئت قال : فغضب وذهب وترك أجره » [١] .

فأحس صاحب العمل بأمانة هذا الأجر فهو له حتى وإن مرت الدهور واختلفت العصور فاستثمر له فرق الأرز هذا حتى اشترى منه بقراً وإبلاً وغنماً ورقيقاً ..

نعم لقد زرعه له وبذره على حدة فأضعف وأضعف حتى كثر الطعام وباع واشترى حتى وصل الأمر إلى هذه الثروة الطائلة التى لم يصدق صاحبها أنها استثمار لفرق أرز وكيف سمحت نفس هذا الرجل بهذه الثروة الطائلة ؟ إنه الصدق وحفظ الأمانة فهى فضيلة ثقيلة وعسيرة لا تطيقها إلا النفوس الكبيرة لأنها عمل فى إخلاص وعبادة فى صبر وخشوع وإنابة . ومن هنا نرى القرآن الكريم يصورها فى صورة ضخمة يعجز الكون كله عن حملها .

لقد استاق الأجير ثروته الطائلة كاملة ولم يترك منها شيئاً وقد فعل الرجل ذلك مخلصاً لله تعالى وها هو يرفع يديه قائلا : « اللهم فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ومن خشيتك ففرّج عنا ما نحن فيه » .

وهنا يأتى الفرج الإلٰهى فتنفرج الصخرة كلها ويخرج الثلاثة يمشون . وتأتى هذه القصة لتعلمنا دروسا نافعة فى اللجوء إلى الله تعالى وحده فى الكرب ، والتقرب إليه بذكر الأعمال الصالحة ، واستنجاز وعده بسؤاله ، والافتقار إليه وأن يعتقد الشخص تقصيره ، ثم هى ترشدنا إلى فضل الإخلاص فى العمل وأنه سفينة النجاة ، وفضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الأهل والولد وتحمل المشقة من أجلهما . وفضل أداء الأمانة ، وتكريم الله لعباده الصالحين . وفضل التعفف عن الحرام ونهى النفس عن الهوى .

إشارات ودلالات :

ونلاحظ أن الحديث لم يذكر أسماء شخصيات القصة وقد ورد أنهم كانوا من بنى إسرائيل فقط . كما صيغت هذه القصة بإيجاز تغنى فيه الإشارة عن العبارة ، وقد قام حرف العطف هنا (الفاء) بالدلالة على ما حذف من الجمل مع تصوير الحدث بترتيبه وتعقيبه من دخول الغار وغلق بابه عليهم وتحيرهم ثم لجوئهم السريع إلى الله تعالى متوسلين بأعمالهم بقيام الأول فالثانى فالثالث .

---

(١) فتح البارى جـ ٦ ص ٥٨٦ .

وقد قدم كل واحد منهم عمله الصالح بدعاء ربه (اللهم) وقد حَسَّن هذا التقديم أنه صدر فعلاً من إحساس وجدانى صادق وأثار من المشاعر والدلالات ما يجعله أقدر على إمتاع القارىء والسامع لقصتهم والتأثير فى نفسه .

وقد جاءت رواية هذا الحديث فى المزارعة [1] بالتوكيد عند الثلاثة « اللهم إنَّه كان لى والدان .. » « اللهم إنَّها كانت لى بنتُ عم » « اللهم إنِّى استأجرت أجيراً » وهذا التوكيد مناسب لحوادث القصة ، ذلك أنها أمور لها خطرها ، وشأنها يستدعى الاهتمام بها وتوكيدها . كما أن التنويع هنا عند الأول « اللهم إنه » والثانى « اللهم إنها » والثالث « اللهم إنى » من التفنن اللغوى ، فالهاء فى الأول ضمير الشأن ، وفى الثانى للقصة ، وناسب ذلك أن القصة فى امرأة .

وجاء قولهم « اللهم إن كنت تعلم » مناسباً تماماً لحالتهم النفسية واعتقادهم التقصير مما يدل على تخلقهم بخلق الصالحين (رَغَباً ورَهَباً) فهم بين الخوف والرجاء فلا يقال اعتراضاً عليهم إن المؤمن يعلم قطعاً أن الله يعلم ذلك ، فهم بلا شك كانوا يعتقدون ذلك ولكنهم ترددوا فى أعمالهم هذه هل لها اعتبار عند الله أم لا ، وكأنهم سألوه سبحانه إن كانت أعمالهم مقبولة عنده أن يجيب دعاءهم .

وما أجمله من تعبير « اللهم إن كنت تعلم أنِّى فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه » ولم يقل واحد منهم أدعوك بعملى .

ونرى دقة التعبير بهذه الأفعال الواردة كلها (فانفرجت) ذلك أن وزن (انفعل) لا يكون إلا فى الأفعال العلاجية . (فانحدرت) والتعبير بالفعل (أَلَمَّت بها سَنَةٌ) يدل على أنها كانت فى غنى عن ذلك مع عفتها مما يوحى بشدة ضرورتها والتعبير بالفعل (فامتنعت) فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وكذا (فثمَّرْتُ أجره) مما يدل على شدة اهتمامه باستثمار هذا الأجر اليسير . وكذا (فاستاقه) إذ (افتعل) تدل على المبالغة فى معنى الفعل مثل قدر واقتدر .

وكذا « لا تَفُضّ الخَاتَم إلا بحقه » فالخاتم كناية عن بكارتها فكَنَّت عن الإفضاء بالكسر ، وعن الفرج بالخاتم .

فسبحان من أنطق هؤلاء بهذا الحوار الدقيق البليغ ، الذى يفيض بالمعانى الزاخرة .

---

(١) البخارى جـ ٣ / ١٣٨ ــ ١٣٩ .

وسبحان من أطلع حبيبه ﷺ على ذلك ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [١] .

(١) سورة هود الآية ٤٩ .

قصة القاتل التائب

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رَجلٌ قتل تسعةً وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأَلُ ، فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبةٍ ؟ قال : لا ، فقتله . فَجَعَلَ يسأَلُ ، فقال له رجلٌ : ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموتُ ، فناء بصدره نحوَها ، فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ ، فأوحى الله إلى هذه أنْ تقرَّبى ، وأوحى الله إلى هذه أن تَباعَدِى ، وقال : قِيسُوا ما بينهما ، فوُجِدَ إلى هذه أقْرَبَ بشبرٍ ، فَغُفِرَ له » (١) .

دراسة وتحليل :

الخطأ طبيعة الإنسان ، فهو غير معصوم ، ومُعَرَّض دائما لأن تجمح به نفسه فينحرف عن الصراط المستقيم ، والناس أمام الذنوب فريقان : منهم من يباهى بمعصيته ويتمادى فى طغيانه ، ومنهم من يؤنبه ضميره فيندم على ما فعل ويسارع بالتوبة إلى الله ، ويرجوه رحمته ورضاه .

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتوبة فقال سبحانه : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنونَ لعلكم تُفلِحُون** ﴾ (٢) وبين أنه سبحانه ﴿ **يُحبُّ التَّوابينَ ويُحِبُّ المُتطَهِّرين** ﴾ (٣) وقال أيضا : ﴿ **وَهُو الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبادِه وَ يَعْفُو عَن السَّيِّئاتِ وَيعْلَمُ مَا تفعلون** ﴾(٤) .

كما أن من رحمته أنه يبدل سيئات التائبين حسنات يقول الله تعالى : ﴿ **إلّا مَنْ تاب وآمَنَ وَعمِلَ عَمَلاً صالحًا فَأولئكَ يُبَدِّلُ الله سيئاتهم حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غفوراً رَحِيما** ﴾ (٥) وما أعظمها من آية فى القرآن تسكب فى قلب المؤمن وُدّاً وطمأنينة تلك التى يقول الله تعالى فيها : ﴿ **قُلْ يا عِبادِىَ الّذين أسْرَفُوا على أنْفُسِهم لا تَقْنَطُوا مِنْ**

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء باب ماذكر بنى إسرائيل ٤ / ٢١١ — ٢١٢ .

معانى المفردات :

الراهب : عابد من عباد بنى إسرائيل .

فناء : بعد والمعنى مال إلى الأرض التى طلبها ، وروى .

(فنأى) ومعناها : بعد عن الأرض التى خرج منها .

(٢) سورة النور الآية ٣١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة الشورى الآية ٢٥ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

والقصة التى معنا يخبرنا فيها رسول الله ﷺ أنه كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ولكنه ندم ، فها هو يستجيب لنداء الفطرة ويبحث عن أعلم أهل الأرض لعله يطمعه فى رحمة الله تعالى ومغفرته ولا يجعله ييأس ، فدلوه على راهب ، وليس الراهب على قدر من العلم ولكن عكوفه على العبادة فى صومعته جعله فى نظرهم أقرب إلى العلماء ... يالها من مشكلة عظيمة حين سَدَّ الراهب فى وجهه باب التوبة فقتله وأكمل به مائة ... إنه مريض يحتاج إلى طبيب ماهر ، وعالم ذى حكمة .. لقد ظل يسأل عن أعلم أهل الأرض فَدلُّوه هذه المرة على عالم أحيا الأمل فى نفسه ولم يُقَنِّطه من رحمة ربه وإنما قال له : « وَمَنْ يحولُ بينك وبين التوبة ؟! » إنه لا أحد يحول بينك وبين التوبة ، نعم فالتائب حبيب الرحمـٰن .. ولكن علاجه لا يكمل إلا بالابتعاد عن هذه القرية التى عصى الله فيها بهذه الكبيرة المتكررة لقد أشار عليه أن يذهب إلى قرية صالحة (نَصْرَة) (٢) يعبد الله فيها .. فتاب الرجل وعزم على الطاعة وسار فى طريقه وقد صحح نيته وأحس بميلاده من جديد ، وفى الطريق أتاه ملك الموت فقبض روحه ، فنهض متثاقلا ومال إلى الأرض التى نوى الطاعة والإقامة فيها وذكر عن الحسن رضى الله عنه « أنه لما أتاه الموت ناء بصدره » (٣) .

وهنا تختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب « فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو لها » .

إن وحى الله تعالى إلهام للنحل وللصالحين وللكون كله كما ورد فى الآيات وفُسِّر بذلك فليس خاصًّا بما يوحى للرسل والأنبياء ومن هنا فليس عجيبا أن الله أوحى إلى القرية التى خرج منها هذا التائب « أن تباعدى » وإلى القرية التى قصدها « أن تقرّبى » فقاسوا المسافة فوجدوه أدنى إلى الأرض التى هاجر إليها ليعبد الله فيها بشبر واحد فقبضته ملائكة الرحمة .

لقد جاءت القصة بيانا لمشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٢) كذا اسم القرية فى فتح البارى جـ ٦ ص ٥٩٧ . (٣) السابق نفسه .

ذلك أن رحمة الله وسعت كل شيء وأن على العبد ألا يستبعد رحمة الله فهو رحيم ودود .

وحينما قرأ الحسن البصرى قول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الذين قَالُوا إِنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ وَما مِنْ إلـه إِلّا إلـهٌ واحدٌ وإنْ لم يَنْتَهوا عمّا يَقُولون ليمَسَّن الذين كفروا منهم عذابٌ أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويَسْتَغْفِرونَهُ والله غَفُورٌ رَحِيم** ﴾ (١) قال : « انظروا إلى هذا الكرم الإلـهى قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة » (٢) .

إشارات ودلالات :

ونلاحظ فى هذه القصة تنكير الشخصيات « رجلٌ من بنى إسرائيل » « فأتى راهباً » « فقال له رجلٌ » وذلك لأن المقصود من القصة هو العظة والعبرة ، إلا أن مجىء كلمة الراهب فيها يعطينا إشارة لزمانها وهو أن ذلك كان بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام لأن الرهبانية إنما ابتدعها أتباعه كما جاء فى القرآن الكريم .

وفى رواية « فقال : له توبة ؟ » بحذف أداة الاستفهام جاء الكلام على التجريد أو الالتفات ، لأن حق السياق أن يقول هل لى توبة ؟ ومن جمال الصياغة قول العالم له « ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ » استفهام إنكارى بمعنى أن أحداً لا يستطيع أن يمنعك منها .

وجاء الفعل (اختصم) مناسباً للمعنى ودالاً على المراد لأنه على وزن (افتعل) والمقصود (تخاصم) بالتشارك .

ومجىء الفاء فى أحداث القصة له دلالته ، بالإضافة إلى الإيجاز بالحذف فى كثير من أحداثها ففى قوله « ثم خرج يسأل » حذف المتعلق أى خرج يسأل عن التوبة ، وما طوى فيها من جمل وعبارات واضحه .

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٧٣ ـــ ٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير سورة الزمر جـ ٥ / ٩٨ ط الشعب .

قصة الألف دينار

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ ذَكَر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلفَهُ أَلْف دينارٍ فَقَالَ ائتنى بالشهداءِ أُشْهِدُهُم فَقَالَ كَفَى بالله شهيداً ، قَالَ فائتنى بالكفيلِ قَالَ كَفَى بالله كَفيلاً ، قَالَ صَدَقْتَ فَدَفَعَها إليه إلى أجلٍ مُسَمَّى فخرجَ فى البحرِ فقَضَى حَاجَتَهُ ثم الْتَمَسَ مَرْكَباً يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عليه للأجل الذى أَجَلَهُ فلم يجد مَرْكَباً فَأَخَذَ خشبةً فَنَقَرها (١) فَأَدْخَلَ فيها أَلْفَ دينارٍ وصحيفةً منه إلى صَاحِبِه ثم زَجَّجَ (٢) مَوْضِعَها ثُمَّ أَتَى بها إلى البحر فَقَالَ اللهُمَّ إنَّك تَعْلَمُ أنى كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فلاناً أَلفَ دينارٍ فسألنى كفيلاً فقلتُ كفى بالله كفيلاً فَرضَى بكَ وَسَأَلَنِى شهيداً فَقُلْتُ كفى بالله شهيداً فَرضِىَ بكَ ، وَأَنِّى جَهَدْتُ أَنْ أجدَ مَرْكَباً أَبْعَثُ إليه الَّذى له فلم أَقْدِرْ ، وَإنِّى أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بها فى البحرِ حَتَّى وَلَجَتْ (٣) فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فى ذلك يَلْتَمِسُ مَرْكَباً يَخْرُجُ إلى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الذى كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَباً قَدْ جَاءَ بماله ، فإذا بالخشبةِ التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها (٤) وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار ، فقال والله مازلت جاهداً (٥) فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه قَالَ : هَلْ كُنْتَ بعثتَ إلَىَّ بشىءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّى لَمْ أجِدْ مُرْكَباً قبل الذى جئتُ فِيهِ ، قَالَ فإن الله قد أَدَّى عنكَ الذى بعثتَ فى الخشبةِ فانْصَرِفْ بالألفِ دينارٍ رَاشِداً » (٦) .

دراسة وتحليل :

الأمانة كلمة صغيرة فى مبناها ، كبيرة فى معناها ، وبين لفظها ومعناها كما بين

المفردات :

(١) نقرها : حفرها .
(٢) زَجَّجَ أى سوَّى موضع النقر وأصلحه .
(٣) ولجت فيه : دخلت البحر .
(٤) نشرها : شقها بالمنشار .
(٥) جاهداً : مجتهداً فى البحث عن مركب .
(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب البيوع باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها جـ ٣ / ١٢٤ وذكر جزءاً منه فى باب التجارة فى البحر جـ ٣ / ٧٣ وفى كتاب الزكاة باب مايستخرج من البحر جـ ٢ / ١٥٩ وكتاب الاستقراض جـ ٢ / ١٥٦ وكتاب اللقطة جـ ٣ / ١٦٤ وكتاب الشروط جـ ٣ / ٢٥٨ وكتاب الاستئذان باب بمن يُبدأ فى الكتاب جـ ٨ / ٧٢ .

الشمس فى حقيقتها وفى رؤيا الناظرين لها فالشمس تبدو لنا صغيرة ولكنها فى الحقيقة كبيرة جداً .

وقد كان رسول الله ﷺ لا تخلو خطبة من خطبه من الحديث عن الأمانة وصلتها الوثيقة بالعقيدة ، فالإيمان والأمانة لازمان متلازمان « لا إيمان لمن لا لا أمانة له » وقد صوّرها القرآن الكريم فى صورة ضخمة يعجز الكون كله عن حملها فقد عرضها الله على السمٰوات فأبت أن تحملها ، وعرضها على الأرض فاشفقت منها ، وعرضها على الجبال الشّداد فارتعدت من هيبتها ، وعرضها على الإنسان فحملها وألقيت عليه تبعاتها .

ثم هى ليست أمراً واحداً ، بل هى أمانات يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِها** ﴾ (١) .

ومن صور هذه الأمانة « الوديعة » يستأمنك عليها إنسان لتؤديها إليه عند طلبها ، و « القرض » يقرضك إياه أخوك لتؤديه إليه عند حلول أجله ، سواء أكان مكتوباً أم غير مكتوب .

ويعرض لنا رسول الله ﷺ قصةً فى هذا المجال كانت فى بنى إسرائيل وكانت عجَباً لنتعظ بما فيها .

لقد كان فى بنى إسرائيل رجل يقرض الناس فأتاه مستقرض ذات يوم يريد قرضا فطلب منه كفيلا يكفله ويكون زعيما بالسداد إذا لم يسدد هو ، فحجَّه قائلا : كفى بالله وكيلا . فقال له : نعم . فهل من شهود ؟ قال له : كفى بالله شهيدا .

عندئذ أعطاه الألف دينار التى طلبها وقال فى نفسه : سبحان الله نعم فليس بعد الله شهيدٌ أو كفيل .

واتفقا على ميعاد يسدده فيه ولا يتأخر عنه ، وضرب الرجل فى تجارة فسافر بهذا المبلغ راكباً البحر يتاجر فيه فقدّر الله تعالى أن حَلَّ الأجل وحال البحر بينهما ، لم يستطع المستقرض أن يركب البحر إليه ليسدد الدين ، ولم يجد مَرْكَباً يوصله إلى مقصده .

لقد مرت الأيام وصاحب الدنانير ــ مع ثقته بربه ــ كان قلقا .. وهاهو الأجل قد حَلَّ .. ثم هاهو بعد مرور هذه الأيام الطويلة عليه يخرج ويذهب إلى الساحل ويسأل عنه

---

(١) سورة النساء من الآية ٥٨ .

ويقول : « اللهم اخلفنى وإنما أعطيت لك » .

والذى أخذ الدنانير واقف على شاطىء بعيد يود لو أن سفينة توصله سريعاً فماذا يفعل ؟ إنه فكر وقَدَّر .. فهداه تفكيره إلى أن ينجر خشبة ويحفرها كتابوتٍ يضع فيه الدنانير ورسالة منه إلى صاحبه الذى ائتمنه .. فيها : « من فلان إلى فلان » وقال باسم الله ورمى بها فى البحر الذى تتلاطم أمواجه .. نعم « من فلان إلى فلان إنى دفعت مالك إلى وكيلى الذى توكل بى » ودعا ربَّه ،... لقد استودع هذا المال ربه الذى لا تضيع ودائعه .. وهاهو صاحب المال يفكر وينظر لعل مركبا يأتى بماله ..

أما وقد طال الانتظار .. ولم يرجع الرجل بالمال فلا أقل من أن يأخذ هذه الخشبة التى رماها البحة على الساحل ... يأخذها وقوداً لأهله ، ولا يرجع خالى الوفاض ، وفعلا أخذها وشغل نفسه بها وأحضر قدومه ومنشاره لينشرها حطباً لأهله فانتثرت الدنانير منها فهدَّأتْ من روعه ، حتى لقد كان صوت الدنانير فى أذنيه أعظم من التغريد ، وقد أزال هذا الصوت كرير صدره المجهود ، وقرقرة أمعائه واضطرابها ، واستقرت نفسه ، وهدأ حسه .

لقد أخذ يجمع الدنانير فظهرت معها صحيفة .. لقد قرأها إنها رسالة بليغة يذكر فيها أنه دفع ماله لمن لا تضيع عنده وديعة . وبعد قراءتها تعجب وسبَّح وحمد الله تعالى . (إن هذا لشىء عجاب) ثم هاهو الذى كان قد أسلفه يجد مَرْكَباً فيأتى إلى رب المال ليعطيه ألفا ، فلمن كانت الأولى إذن ؟ يقول دفعتها إلى وكيلى ، أما هذه فهى لك فيسأله عن القصة ويعجب كيف حُفِظَتْ هذه فى الماء ؟ وكيف وصلت إليه ؟، وهل كانت مُعَلَّمة بحيث إذا أرسلت استرسلت ؟ وإذا عُينِّ صاحبها لم تذهب إلى غيره ؟ ولكن أما يدرى أنه (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

لقد عرف القصة وازداد إيمانا ويقينا وقال لصاحبه « إن الله قد أدَّى عنك الذى بعثت فى الخشبة فانصرف بالألف دينارٍ راشداً » .

وحينما حدث رسول الله ﷺ أصحابه بهذه القصة رأوها آية .. وحديثاً عجباً . يقول أبو هريرة رضى الله عنه : « ولقد رأيتُنا عند رسول الله ﷺ يكثر مراؤنا ولَغَطُنا ، أيهما آمن » ؟ (١) .

لقد أتت القصة تحمل فى طياتها دروساً نافعة ، ولذا كررها البخارى فى صحيحه

---

(١) فتح البارى جـ ٤ / ٥٥١ من رواية أبى سلمة .

ووضع لها ترجمات تدل على مدى فقهه وأعظم الدروس فيها بيان فضل التوكل على الله تعالى وأن من صح توكله تكفل الله تعالى بنصره وعونه .

وما أجمل صياغتها وهي تصور الأحداث ، وتنطق صاحب المال وترسمه لنا وهو جالس على الشاطىء ينتظر دنانيره ، ومعالجة الآخر وحيلته ثم ما كان بينهما من حوار كان الله فيه كفيلاً وشهيداً ومؤدياً . (وكفى بالله حسيبا) .

العقار والكنز

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « اشترى رجلٌ من رجل عَقَاراً له ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الذى اشترى العَقَارَ فى عَقاره جَرَّةً فيها ذهبٌ ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك منى ، إنما اشتريت منك الأرضَ ولم أَبْتَعْ منك الذهب . وقال الذى له الأرض إنما بعتك الأرضَ وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : أَلَكُمَا وَلَدٌ ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جاريةٌ ، قال : أنكحوا الغُلامَ الجاريةَ وأنفقوا على أنفُسِهما مِنْه ، وتَصدَّقَا » (١) .

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء حـ ٤ / ٢١٢ وفتح البارى جـ ٦ / ٥٩٢ الحديث ٣٤٧٢ .

المفردات :

العقار : المنزل والضَّيعة ، وخصه بعضهم بالنخل ، ويطلق على متاع المنزل النفيس والمراد به هنا الدار .

الجرَّة : آنية من الفخار كبيرة .

تحاكما إلى رجل : قيل هو كندرن ، وقيل قاصد فى عهد ذى القرنين ورجح البخارى من ذكره له فى أحاديث بنى إسرائيل أن ذلك كان فى عهد سيدنا داود عليه السلام . يقول أبو هريرة : « لقد رأيتنا يكثر تمارينا ومنازعتنا عند النبى ﷺ أيهما أكثر أمانة » .

راجع فتح البارى حـ ٦ / ٥٩٥ ـــ ٦٠٠ .

بقرة تتكلم وذئب

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صَلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصبح ثم أقبلَ على النَّاسِ فقال : بَيْنَا رجلٌ يَسُوقُ بقرةً إِذْ رَكِبَها فَضَرَبَها ، فقالتْ : إِنَّا لم نُخْلَقْ لهذا ، إنما خُلِقْنَا للحَرْثِ ، فقال النَّاسُ : سبحان الله بقرةٌ تَكَلَّمُ فقال فإنى أُومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هُمَا ثَمَّ ، وبينما رجلٌ فى غنمه إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فذهب منها بشاةٍ فَطَلَبَ حتى كأنه استَنْقَذَهَا مِنْهُ ، فقال له الذئبُ هَذَا استَنْقَذْتَهَا مِنِّى فَمَنْ لها يوم السَّبُعِ يومَ لا رَاعِيَ لها غَيْرِى ، فقال النَّاسُ : سبحانَ الله ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ ، قال : فإِنِّى أُومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعُمَرُ وما هما ثَمَّ » (١) .

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ / ٢١٢ وفتح البارى جـ ٦ / ٥٩٢ . الحديث رقم ٣٤٧١ .

المفردات :

إذ عدا الذئب : من العدوان .

وما هما ثَمّ : وما كانا هناك بمعنى لم يكونا حاضرين . وهذا يدل على مدى إيمانهما وعظيم تصديقهما للنبى ﷺ .

قرية النمل وقصتها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قرصت نملةٌ نبيّاً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأُحْرِقَتْ فأوحى الله إليه أن قَرَصَتْكَ نملَةٌ أحرقتَ أُمَّةً من الأمم تسبِّحُ » (١) .

وفي رواية أخرى : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملةٌ فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه : فهلا نملة واحدة » (٢) .

دراسة وتحليل :

الحديث الذى معنا يعطينا قصة هادفة لأمة من الأمم مع نبي من الأنبياء هو العزير وقيل موسى (٣) عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . قرصته نملة فأمر بمكان النمل كله فأحرق فعاتبه ربه إذ كان يكفي إحراق النملة التي آذته ، ولكن الله تعالى يعلمنا كيف نحذر العقاب ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ (٤) .

على أن هذه القصة كما جاءت لحكمة نتعلمها ودروس نستفيدها حدثت لهذا النبي أيضا الحكمة أراد ربه أن يعرفه بها فقد ورد أنه مَرَّ على قرية أهلكها الله تعالى بذنوب أهلها فوقف متعجباً فقال : يارب قد كان فيهم صبيان ودوابّ ومن لم يقترف ذنبا ، ثم نزل تحت شجرة فجرت له هذه القصة فنبهه الحق تبارك وتعالى على أن الجنس المؤذى يقتل وإن لم يؤذِ ، ويقتل أولاده كذلك . وعلى هذا فحينما أوحى إليه ربه ﴿ **فهلّا نملةً واحدة** ﴾ لم يكن عتاب إنكار لما فعل ، فما حَدث له وما قيل له كان جواباً وإيضاحاً لحكمة شمول الهلاك جميع أهل تلك القرية فضرب له المثل بذلك (٥) .

---

(١) البخاري كتاب الجهاد والسير جـ ٤ / ٧٥ ــ ٧٦ .

(٢) البخاري كتاب بدء الخلق جـ ٤ / ١٥٨ .

المفردات :

لدغته : قرصته ، جهازه بفتح الجيم وكسرها : متاعه .

بيت النمل وقريته : موضع اجتماعهن .

(٣) القول بأنه موسى رواه الترمذى فى النوادر وجزم الكلاباذى والقرطبي به انظر فتح البارى جـ ٦ / ٤١٢ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٥) هكذا يرى ابن حجر فى فتح البارى جـ ٦ / ٤١٣ .

وجاءت هذه الأقصوصة بإيجازها لتعلمنا أنه يجوز إحراق الحيوان المؤذى ، على أن عتاب النبى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم كان ذلك العتاب على خلاف الأولى لأن الأولى به الصبر والصفح وكم لسيدنا محمد ﷺ من مواقف مع المشركين . كان يقول فيها « اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون » وبيان رحمة الله تعالى بجميع خلقه وعلى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد خاطب الله سيدنا محمداً ﷺ بقوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (١) .

ثم تأتى الأقصوصة دليلاً واضحاً على أن الحيوان يسبح الله تعالى حقيقة بلسان المقال ويتأيد به قول من حمل على الحقيقة قول الله تعالى ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

قصة الأبرص والأعمى والأقرع

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إنَّ ثلاثةً فى بنى إسرائيلَ أبْرَصَ وأقْرَعَ وأعْمَى بَدَا لله عزَّ وجلَّ أن يَبْتَلِيَهُم فَبَعَثَ إليهم مَلَكاً فَأتَى الأبْرَصَ فَقَالَ : أىُّ شىءٍ أحَبُّ إليكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ وجِلْدٌ حَسَنٌ ، قَدْ قَذِرَنى الناسُ . قَالَ : فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ ، فأُعْطِىَ لَوْناً حَسَناً وجِلْداً حَسَناً . فَقَالَ : أىُّ المالِ أحَبُّ إليكَ ؟ قَالَ : الإبِلُ أو قَالَ البَقَرُ ، هو شَكَّ فى ذلك إنَّ الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبلُ وقال الآخر البقرُ ، فأُعْطِىَ نَاقَةً عشرَاءَ ، فقال يُبَارَكُ لك فيها . وَأَتَى الأقرعَ فقال : أىُّ شىءٍ أحَبُّ إليكَ ؟ قال : شَعرٌ حسن ويَذْهَبُ هذا عَنِّى ،قَدْ قذِرَنى النَّاسُ . قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وأُعْطِىَ شَعراً حَسَناً . قال : فأىُّ المالِ أحَبُّ إليكَ ؟ قَالَ : البَقَرُ . قَالَ فأعطاه بقرةً حَامِلاً . وقال : يُبَارَكُ لَكَ فيها . وأتَى الأعْمَى فقال : أىُّ شىءٍ أحَبُّ إليك ؟ قَالَ : يَرُدُّ الله إلَىَّ بصرى فَأُبْصِرُ به النَّاسَ . قال فَمَسَحَهُ فردَّ الله إليه بصره . قال : فَأىُّ المالِ أحَبُّ إليكَ ؟ قال : الغَنَمُ ، فأعطاه شاة والِداً فأُنْتِجَ هذان وَوَلَّدَ هذا فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من بقر ، ولهذا وادٍ من الغنم . ثم إنَّهُ أَتَى الأبْرَصَ فى صورتِه وهيئَتِهِ فَقَالَ : رجلٌ مسكينٌ تَقَطَّعَتْ به الحبالُ فى سفره فلا بَلاغَ اليومَ إلا بالله ثُمَّ بِكَ ، أسأَلُكَ بالذى أعطاك اللونَ الحَسَنَ والجلد الحَسَنَ والمالَ — بعيراً أتَبَلَّغُ به فى سفرى . فَقَالَ لَهُ : إن الحقوقَ كثيرةٌ . فقال له : كأنِّى أعْرِفُكَ ألم تكن أبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : لقد وَرِثْتُ لكابرٍ عن كابرٍ : فَقَالَ : إن كنتَ كاذباً فصيَّرَكَ الله إلى ما كنتَ وأتَى الأقْرَعَ فى صورتِه وهيئَتِهِ فَقَالَ له مِثْلَ ما قَالَ لهذا ، فَرَدَّ عليه هذا ، فَقَال : إنْ كنتَ كاذباً فصيَّرَكَ الله إلى ما كُنْتَ . وأتَى الأعْمَى فى صورتِه فَقَالَ : رجلٌ مسكينٌ وابن السَّبِيلِ وتَقَطَّعَتْ به الحِبَالُ فى سفره ، فلا بلاغَ اليومَ إلا بالله ثم بك أسْأَلُكَ بالذى رَدَّ عليك بَصَرَكَ شاةً أتَبَلَّغُ بها فى سفرى . وقَالَ لَهُ : قَدْ كُنْتُ أعمى فَرَدَّ الله بصرى ، وفقيراً فَقَدْ أغْنَانِى فَخُذْ مَا شِئْتَ فوالله لا أجْهَدُكَ اليوم بشىءٍ أخَذْتَهُ لله . فَقَال : أمْسِكْ مَالَكَ ، فإنَّما ابْتُلِيتُم فَقَدْ رَضِىَ الله عَنْكَ وسَخِطَ على صَاحِبَيْكَ » (١) .

(١) البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ / ٢٠٨ — ٢٠٩ وذكر طرفاً منه فى كتاب الأيمان والنذور جـ ٨ / ١٦٦ .

معانى المفردات :

بدا لله : سبق فى علمه فأراد إظهاره .

قذِرنى الناس : اشمأزوا من رؤيتى .

مسحه : مسح على جسمه .

دراسة وتحليل :

النعمة هى « الخير يصل إلى المرء فى دينه أو دنياه . فالمال نعمة ، والجاه نعمة ، والإيمان نعمة . والسمع والبصر نعمتان . والعلم والحكمة نعمة ، والقرآن نعمة . وجميعها نِعَمٌ وأَنْعُم . وقد يراد بالنعمة الجنس فتوضع موضع النِّعَمِ ، وقد توضع النعمة موضع الإنعام فتكون اسم مصدر من أنعم » [1] .

ونعم الله تعالى أكثر من أن يحيط بها عَدٌّ أو يفى بها حصر ولكن الإنسان بطبيعته ينسى يقول الله تعالى : ﴿ **وآتاكُم من كُلِّ ما سألتموه وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها إنَّ الإنسانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [2] .

فإذا ما شكر النعمة وأَدَّى حق الله فيها للسائل والمحروم ، فأعطى مما رزقه الله من صحة أو جاه أو علم أو مال كان أهلا لرحمة الله تعالى يقول الله سبحانه : ﴿ **وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوهَا إن الله لغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [3] .

وقد ذكَّرَ الله أنبياءه بنعمته عليهم فى كثير من آيات القرآن الكريم يقول سبحانه ﴿ **يا عيسى ابنَ مَرْيَمَ اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتك** ﴾ [4] ويقول أيضا ﴿ **ن . والقَلمِ وما يَسْطُرونَ . ما أنتَ بنعمة رَبِّك بِمَجْنُونٍ** ﴾ [5] ويخاطبه قائلا : ﴿ **وأمَّا بنعمةِ رَبِّك فَحدِّثْ** ﴾ [6] .

والمصيبة الكبرى ، والعذاب الأليم يحل بالخلق إذا ماجحدوا نعمة الخالق يقول سبحانه ﴿ **ومن يُبَدِّلْ نِعمةَ الله من بعد ماجاءَتْه فإن الله شديدُ العقابِ** ﴾ [7] ﴿ **ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغَيِّرًا نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم** ﴾ [8] .

ناقة عُشَرَاءَ : حامل أتى عليها عشرة أشهر .

الحبال : جمع حبل والمراد الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق ، وقيل العقبات .

أتبلَّغ به : أتوصل به إلى مرادى .

لا أجهدك اليوم بشىء : لا أشق عليك فى رد شىء تطلبه منى أو تأخذه .

ابتليتم : امتحنتم .

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية ص ٦٦٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤ .

(٣) سورة النحل الآية ١٨ .

(٤) سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٥) سورة القلم الآيات الثلاث الأولى .

(٦) سورة الضحى الآية ١١ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢١١ .

(٨) سورة الأنفال الآية ٥٣ .

والقصة التى معنا تعطينا نماذج بشرية من أصحاب العاهات فهم أبرص وأقرع وأعمى كانوا فى بنى إسرائيل ، إنها عاهات شديدة والشفاء منها لا يكون إلا على يد نبى مرسل ، أو معجزة خارقة كما حدث لهؤلاء .

لقد سبق فى علم الله تعالى أن يبتليهم فأراد الله إظهاره فبعث الله إليهم ملكا فأتى الأبرص فسأله عن أحب الأشياء إليه ، وهل هناك شيء أحب إليه من أن يشفيه الله من هذا المرض اللعين. وأن يعطيه لونا حسنا وجلداً حسنا ؟! وفعلا طلب هذا فما هو إلا أن مسح على جسمه فغيَّره الله إلى ماأراد .

وسأله عن أحب المال إليه فطلب منه شيئاً من النعم فأعطاه ما تمناه « ناقة عُشَرَاء » حاملاً مر على حملها عشرة أشهر سبحان الله إنّ خيراً سيأتى منها وهى من أنفس المال ، وقد بارك الله فيها فملأت الوادى إبلاً . إذ دعا له الملك بهذا .

وأتى الأقرع وعرف منه أحب الأشياء إليه وأحب المال عنده ؟ فرد الله عليه شعره وأذهب عنه مرضه ، وأعطاه بقرة حاملاً ودعا له فبارك الله فيها وملأت الوادى بقراً .

وأتى الأعمى وعرف منه أيضاً أحب الأشياء إليه وأحب المال عنده ، فأبصر بعد عمى ورأى الدنيا بزينتها وزخارفها وأبصر عدوه من صديقه ، وعرف كيف السير وحده ، وأحس بالفرق الشاسع فالحالان لا يستويان ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وأعطاه شاة ذات ولد ودعا له بالبركة فيها فتكاثرت حتى ملأت الوادى غنماً .

ها هى النعم كثيرة فى الجسم والمال ، إنها انتقالة كبرى من حياة إلى حياة كفيلة أن تربط المُنْعَمَ عليه بالمُنْعِم سبحانه ، لا يتوانى فى عبادته وشكر نعمائه .

لقد مرت الأيام ، والله حليم لا يعجل .. إنه لا يعجل حتى بالعقوبة على من عصاه . لقد جاء ميعاد امتحانهم وابتلائهم ذلك أن الابتلاء كما يكون بالسلب يكون بالعطاء يقول الله سبحانه ﴿ **فأمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاهُ رَبُّه فَأكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقولُ ربى أكرمن . وأما إذا ماابتلاهُ فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن** ﴾ (١) .

لقد أتى المَلَكَ إلى كل واحدٍ منهم فى صورته .. ويا للعجب مما رأى من الأبرص

(١) سورة الفجر الآيتان ١٥ ــ ١٦ .

والأقرع ، لقد نسيا ما مضى ، وكفرا بهذه النعمة ، وجحدا فضل الله تعالى . وكما ادعى قارون أنه أوتى هذه الخزائن على علم عنده . ادعى الأبرص أنه لم يكن مريضاً قبل ذلك ، ولم يكن فقيراً ، بل ورث هذه الثروة كابراً عن كابر يعنى كبيراً عن كبير فى العز والشرف .

سبحان الله ﴿ **فلما آتاهم من فَضْلِه بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ [1] وكأنما تواصيا بهذا فقد قال الأقرع مثل مقالة صاحبه . فدعا الملك عليهما فصارا إلى حالهما الأول .

ولا يدرى الملك ماذا يفعل الثالث معه ، لقد أبصر بعد عمى وها هو الملك يلبس ثيابه الماضية فيأتيه فى صورته قائلا : « رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت به الحبال فى سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك » نعم إنها صورة مسكين تحرك القلب المؤمن فهو أعمى وعليه آثار السفر ومشقة الطريق وكآبة المنظر .. وليس له حيلة .. ثم هو يذكرك بالله تعالى بدقة عظيمة تدل على إيمانه « فلا بلاغ اليوم إلا بالله » يفعل مايشاء وييسر لعباده مايريد . « ثم بك » أى فلا تحرم نفسك من الخير والإنفاق من مال الله الذى استخلفك عليه .

هنا أدرك الملك الفرق بين هذا الرجل ومن سبقاه .. إنه قد فرح بمن يسأله وهشَّ له وبشَّ ، ولم يستح أن يذكر أصله وما كان فيه ، وكيف أنعم الله عليه بصحة وعافية ، ونظر سليم وأموال كثيرة .. فانتقل من العمى إلى الإبصار ومن الفقر إلى الغنى وبين له أنه كان مثله .. ثم استحلفه بالله ألا يتردد فى أخذ شيء يريده من هذا المال .

ونرى قوله بما فيه من جمال « فو الله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله » .

وهنا يظهر الملك حقيقته وأنه مرسل من عند الله لاختبار هؤلاء الثلاثة قائلا : أمسك عليك مالك ، فإنما ابتليتم وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك » .

فجاءت القصة تحذيراً من كفران النعم وترغيبا فى شكرها والاعتراف بها وحمد الله عليها ، والابتعاد عن البخل فهو مذموم فى كل زمان ومكان وقد حمل صاحبه على الكذب وجحود نعمة الله تعالى عليه .

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٦ .

مؤمن يخاف الحساب

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان رجلٌ يُسْرِفُ على نفسه ، فلما حَضَرَهُ الموتُ قال لبنيه : إذَا أنا مُتُّ فأَحْرِقُونى ، ثم اطحَنونى ، ثم ذَرُّونى فى الريح فو الله لَئِنْ قَدَرَ الله علَىَّ لَيُعَذِّبَنِّى عذاباً ما عَذَّبَهُ أحداً . فَلَمَّا ماتَ فُعِلَ به ذلك ، فأمر الله الأرضَ فقال : اجمعى مافيك منه ففعلتْ . فإذا هو قائمٌ ، فَقَالَ : ما حَمَلَكَ على ماصَنَعْتَ ؟ قال : يَارَبِّ خَشْيَتُكَ . فغَفَرَ لَهُ » وقال غيره : « مَخَافَتُكَ يَارَبِّ » (١) .

دراسة وتحليل :

القصة التى معنا تعرض تفكيراً فى خيال كثير من الناس فى العالم اليوم وهو حرق الميت بعد موته كما فعلوا ويفعلون فى الهند اليوم ولكن ما الدافع إلى ذلك ؟ إنه بلا شك إنكار عقيدة البعث أو على فرض أن هناك بعثا ــ فى نظرهم ــ فقد انتهى الأمر وحرقت الجثة وصارت رماداً تذروه الرياح فلا شىء .

وهذا عجيب فإن الذى خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكوراً قادر على أن يعيده بعد أن صار شيئاً يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَيَقُولُ الإنسانُ إذا ماتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أولا يذكر الإنسان أنا خلقنا من قبل ولم يك شيئاً** ﴾ (٢) .

ولكن صاحب القصة التى معنا لم يكن منكراً للبعث ، وإنما كان جاهلاً فظن أنه إذا فُعِلَ به ذلك لا يعاد فيُعَذَّبُ ، ذلك أن إيمانه ظاهر فى قوله حينما سأله ربه عن الدافع لذلك فقال « **خشيتك ومخافتُك** يارب » وهذا هو السر فى أن يذكره البخارى فى كتاب التوحيد .

ولعل الرجل أوصى أولاده بذلك لشدة جزعه وخوفه من الله تعالى .

على أن روايات الحديث تقول : « كان رجل يسرف على نفسه » « كان يسىء الظن

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء باب ماذكر عن بنى إسرائيل جـ ٤ / ٢١٤ ــ ٢١٥ و ص ٢٠٥ عن حذيفة ، وكذا بروايته عن أبى هريرة فى كتاب التوحيد جـ ٩ / ١٧٧ ــ ١٧٨ وبرواية أخرى عن أبى سعيد الخدرى فى كتاب التوحيد جـ ٩ / ١٧٨ وكذا فى كتاب الرقاق جـ ٨ / ١٢٦ .

معانى المفردات :

يسرف على نفسه : بالمعصية . ذرُّونى : فرقونى من أذوت الريح الشىء إذا فرقته بهوبها .

(٢) سورة مريم الآيتان ٦٦ ــ ٦٧ .

بعمله » « لم يبتئر خيراً [1] » « كان نبّاشاً » .

فهذه الروايات فى مجموعها تشير إلى أنه كان مذنباً ولكنها لم تذكر زمن وجود هذا الرجل فى أى عصر كان فلعله كان من أهل الفترة وهم ناجون فى أرجح الأقوال لقول الله سبحانه ﴿ **وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [2] .

إن الرجل لم يكن كافراً بل كانَ مؤمناً وإلا فكيف يغفر الله له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى ؟

إن الرجل كان خائفا فجمع أولاده حين أحسَّ بوفاته وقال لهم : أى أب كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرُ أب . قال فإنه لم يتبئر ـــ أو لم يبتئز ـــ عند الله خيراً وإن يقدر الله عليه يعذبه » [3] .

وأوصاهم إذا مات أن يحرقوه حتى يصير فحماً ويسحقوه ، فإذا كان يوم فيه ريح عاصف ذروه فيها .. ويبين رسول الله ﷺ مدى تأكيد الرجل على ذلك فيقول : « فأخذ مواثيقهم على ذلك وَرَبِّى ، ففعلوا ، أَذْرَوه فى يوم عاصف ، فقال الله عزَّ وجَلَّ : كُنْ . فإذا هو رجل قائم . قال الله : أىْ عبدى ماحملك على أن فعلتَ مافعلتَ ؟ قال : مخافتك ـــ أو فَرَقٌ منك ـــ قال : فما تلافاه أن رَحِمَهُ عندها » [4] .

وقد نفذ أولاده وصيته ولكن أين المفر « لقد قال الله له كن فكان كأسرع من طرفة العين » لعل هذا سيقع فى القيامة وهو إخبار بما سيكون .. وفى سؤاله يجيب بما يدل على إيمانه وعدم إنكاره .. وهنا يستحق رحمة الله تعالى ومغفرته .

ومن مواطن الجمال تنويع حرف العطف « إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ، ثم ذرونى فى الريح » فقد حرص على أن يوصيهم بحرقه فور موته ، وأن يأخذ الإحراق حقه حتى لا يبقى منه شيء فلا يريد الإسراع فيه ولذلك عطف بـ (ثم) التى تدل على التراخى (ثم اطحنونى) وكذلك لا يريد مجرد الطحن بل الطحن الكامل فليأخذ حقه أيضا (ثم ذرونى فى الريح) فعطف بـ (ثم) أيضاً .

---

(١) يعنى لم يدخر لنفسه خيراً .   (٢) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٣) البخارى كتاب التوحيد جـ ٩ / ١٧٨ ومعنى **يبتئر ويبتئز** : يدخر .

(٤) البخارى كتاب الرقاق جـ ٨ / ١٢٦ والتوحيد جـ ٩ / ١٧٨ .

إنها موعظة بليغة ومن هنا ذكرها البخارى فى « الرقاق » وما أحوج المؤمن أن يدخر الصالحات لأخراه .

وما أجمل قول القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموتُ راحة كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعِثْنا ونسأل بعد ذا عن كل شيّء

الرحمة بالحيوان

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى . فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رَقِىَ فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رَطْبَةٍ أجرٌ » (١) .

دراسة وتحليل :

الإسلام دين الرحمة يدعو إليها ويؤكد الوصية بها بالقرآن والحديث ، ومن أعمق هذه المعانى الرحمة بالحيوان الذى لا يفصح عما يريد ومن واجب المؤمن أن يكون رحيما بكل مافى الكون ، وقد كان سيد الخلق ﷺ رحمة للعالمين ، رحمة مهداة .

ومن وسائل الإيضاح وقصص السابقين ماجاء عبرة كالتى دخلت النار بسبب قطة جبستها حتى ماتت جوعاً ، وعلى العكس من ذلك هذا الذى تروى قصته بدخوله الجنة وغفران الله له بسبب سقيه الماء لكلب كان يلهث من شدة الجوع ، فاحتال وجعل من خفه إناء يملأه ويمسكه بفيه ويعالج بيديه الصعود من البئر وهو يشعر بأن الصعود منها كان عسراً وبهذا أزال عطش حيوان أخرس فجازاه الله بفعله وأظهر ذلك عند ملائكته فغفر له فأدخله الجنة وبهذا أوحى إلى رسول الله ﷺ .

وتأتى الأقصوصة دعوة للإحسان إلى الناس لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقى الكلب فسقى المسلم أعظم أجراً .

ويحسن هنا أيضا أن نذكر قصة أخرى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما إن

---

(١) ورد الحديث فى عدة مواضع من البخارى باختلافات يسيرة فى الألفاظ فى كتاب الوضوء جـ ١ / ٥٤ « فشكر الله له فأدخله الجنة » وكتاب المساقاه جـ ٣ / ١٤٦ وكتاب المظالم جـ ٣ / ١٧٣ — ١٧٤ .

معانى المفردات :

يلهث : لهث الكلب أخرج لسانه من العطش .

رَقِىَ : مثل صعد وزنا ومعنى ، ورقى مثل مضى لغة طيء والأول أشهر .

شكر الله له : أثنى عليه أو قبل عمله أو جازاه بفعله .

كبد رطبة : فيها حياة وإحساس لأن الرطوبة لازمة للحياة فهو كناية .

النبى ﷺ صلّى صلاةَ الكُسوف فقال : دنت منى النَّارُ حتى قلتُ أىْ رَبِّ وأنا معهم ؟ فإذا امرأةٌ — حسبتُ أنه قالَ — تَخْدِشُها هِرَّةٌ . قال : ما شأنُ هذه ؟ قالوا : حبستها حتى ماتَتْ جُوعاً » [١] .

فها هو ﷺ عرضت عليه النار فرأى امرأة تعذب بسبب قطة حبستها لا هى أطعمتها وسقتها ولا تركتها تأكل من هوام الأرض وحشراتها ، فقد دخلت النار بسبب هذه المعصية . ويظهر — والله أعلم — أن سوق هذه الأقصوصة والتى قبلها لحكمة بليغة فيما يبدو من الأعمال صغيراً وهو كبير ، سواء كان فى الخير أو الشر وقد حدثنا القرآن الكريم بهذه الآية الجامعة ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ [٢] .

وقال ﷺ : « يا عائشة استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مَسَدّها من الشبعان » [٣] .

وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة ، وقالت : كم فيها من مثقال ذرة » [٤] وعن عائشة أيضا أن النبى ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً » [٥] .

ومما يدل على ثواب الرحمة وجزائها أيضا ما يذكر فى أقصوصة أخرى تأتى حديثا بوحى السماء فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كاد يقتله العطش إِذْ رأته بَغِىٌّ من بغايا بنى إسرائيل فَنزَعت مُوقَها فسقته فَغُفِر لها به » [٦] أى بسبب ذلك .

فهنا امرأة مومس أراد الله لها الهداية فوفقها لعمل الخير فأنقذت كلبا كاد يقتله

---

(١) البخارى كتاب المساقاة جـ ٣ / ١٤٧ .
(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ و ٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد جـ ٦ / ٧٩ .
(٤) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب الصدقة ٢ / ٩٩٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد جـ ٦ / ١٥١ .
(٦) البخارى كتاب بدء الخلق جـ ٤ / ١٥٨ وكتاب الأنبياء جـ ٤ / ٢١١ .

المفردات :

يطيف : من أطاف بالشيء إذا أدام المرور حوله .

ركية : بئر . بغى : الزانية وتطلق على الأمة مطلقا ومما يدل على المعنى الأول رواية « امرأة مومسة » .

موقها : الخف وقيل مايلبس فوق الخف .

العطش ، لقد خلعت خفها وملأته ماء وأنقذت الحيوان من عطشه ، وجزاء الرحمة الوفاق رحمة من الله تعالى وهداية وغفران للذنب وتوفيق للطاعة وختام بها و (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

فنرى فى هذه الأحاديث الإيجاز مع الدلالة على المراد أتم دلالة بصياغة محكمة وألفاظ بليغة ، وتجنب للفضول .

فقد نكرت الشخصيات « بينا رجل » « دخلت امرأة النار » « بينما كلب » « إذ رأته بَغِيٌّ » ذلك أن المراد ليس التأريخ وذكر الأسماء بل الحكمة من الأحداث .

وتتابع الفاءات « فسقى الكلب » « فشكر الله له » « فغفر له » « فأدخله الجنة » « فنزعت موقها » « فسقته » « فغفر لها » دلالة على التعقيب وسرعة الفعل مع سرعة القبول والجزاء . والتعبير فى (يلهث) يدل على شدة العطش فاختيار الفعل ووجود الثاء والهاء المهموستين فيه تشير إلى المعنى واستحضار صورة الكلب وهو يخرج لسانه من شدة العطش . والحركة التى نلحظها فى الفعل (يطيف) إذ المعنى المعجمى لـ (أطاف) أدام المرور حول الشيء .

والتعبير بالفعل (كاد) للدلالة على قربه الشديد من الهلاك ، وأثر سقيه فى إعادة الحياة إليه .

والدلالة من هذه الأقصوصات على أن الرحمة إذا كانت موجودة كان الغفران ، وإذا نزعت كان الشقاء « فلا تنزع الرحمة إلا من قلب شقىّ » .

ثم هذا السؤال عقب إيراد القصة « وإن لنا فى البهائم لأجراً » يدل على حكمة الصحابة . فالسؤال عما فيه الفائدة إذ لم يسأل عن اسم الرجل ومكانه وزمانه . بل فهم المغزى من القصة وأراد أن يتأكد هل هذا كان خاصاً بمن قبلنا ، أم هو شرع لنا يعمم ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بحكم عام وقانون شامل يتجاوب مع الفطرة الإنسانية . إذ الحيوان البهيم وإن كان مخلوقا أدنى إلا أنه يحس وفيه حياة ، والإحسان إليه مأجور ، وقد كتب الله الإحسان على كل شيء .

ماأعظمها من معانٍ دعا إليها الإسلام . جعلنا الله تعالى ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

القسم الثانى

مما حدث فى الإسلام

رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شُعَيْبُ عن الزُّهْرِيِّ قال : أخبرنى عمرو بنُ أبى سُفْيَانَ بن أسيدِ بن جَارِيَةَ الثَّقَفِىُّ — وهو حليف لبنى زُهْرَةَ ، وكان من أصحاب أبى هريرة — أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : « بَعَثَ رسولُ الله ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْناً ، وأَمَّرَ عليهم عاصمَ بنَ ثَابِتٍ الأنصارىّ — جَدَّ عاصم بنِ عمر بن الخطاب — فَانْطَلَقُوا حتَّى إذَا كَانُوا بالهَدَأةِ وهو بين عُسْفَانَ ومكَّةَ — ذُكِرُوا لِحَىٍّ من هُذَيْلٍ يقال لهم بَنُوا لَحْيَانَ ، فَنَفَرُوا لهم قريباً مِن مائتى رجلٍ كُلُّهُم رام ، فاقْتَصُّوا آثارَهُم حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُم تَمْراً تَزَوَّدُوه من المدينةِ فقالوا : هَذا تَمْرُ يَثْرِبَ فاقْتَصُّوا آثارَهَم ، فَلَمَّا رآهم عَاصِمُ وَأَصْحَابُهُ لَجأُوَا إلى فَدْفَدٍ ، وأَحَاطَ بهم القومُ ، فقالُوا لهم : انْزِلُوا وأَعْطُونا بأيديكم ، ولكم العهدُ والميثاقُ ولا نَقْتُلُ منكم أَحَداً . فقالَ عاصمُ بنُ ثابتٍ أميرُ السَّرِيَّة : أَمَّا أَنَا فوالله لا أَنْزِلُ اليومَ فى ذِمَّةِ كافرٍ ، اللهم أخبر عنا نَبِيَّكَ فَرَمَوْهُم بالنَّبْلِ ، فقتلوا عَاصِماً فى سَبْعَةٍ . فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهدِ والميثاقِ ، منهم خُبَيْبٌ الأنصارىُّ وابن دَثِنَةَ ورجلٌ آخَرُ ، فلما اسْتَمكَنُوا منهم أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُم ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ ، والله لا أصحبكـم ، إن لى فى هؤلاء لأسوةً — يريـد القـتلى — فجـرَّروه وعـالجوه على أن يَصْحَبَهُم فَأَبى فَقَتَلُوه . فانْطَلَقُوا بخُبَيْبٍ وابنِ دَثِنَةَ حتى باعوهما بمكَّةَ بعد وقعة بدر ، فابتاع خُبَيْباً بنو الحارثِ بن عامرِ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَاف وكان خُبَيْبٌ هو قَتَلَ الحَارِثَ بنَ عامر يومَ بدرٍ ، فلبث خُبَيْبٌ عندهم أسيراً فأخبرنى عُبَيْدُ الله بنُ عياضٍ أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أخبرته أنهم حين اجتمعوا اسْتَعَارَ منها مُوسَىٰ يَسْتَحِدُّ بها فَأَعَارَتْهُ ، فأخذ ابناً لى وَأَنَا غَافِلَةٌ حين أَتَاهُ ، قَالَتْ : فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ على فَخِذِه والمُوسَى بِيَده ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَها خُبَيْبٌ فى وجهى ، فقال : تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ مَاكُنْتَ لِأَفْعل ذَلِكَ . والله مَارَأَيْتُ أسيراً قَطُّ خيراً مِن خُبَيْبٍ ، وَالله لَقَدْ وَجَدْتُه يَوْماً يَأْكُلُ مِن قِطْفِ عِنَبٍ فى يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فى الحديدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِن ثَمرٍ . وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ من الله رَزَقَهُ خُبَيْباً ، فَلَما خَرَجُوا من الحَرَمِ لِيَقْتُلُوه فِى الحِلِّ قَالَ لَهُم خُبَيْبٌ : ذَرُونى أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ . ثُمَّ قَالَ : لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَابِى جَزَعٌ لَطَوَّلْتُها ، اللَّهُمَّ أَحْصِهِم عَدَداً .

المفردات :

السرية : معركة لم يخرج إليها رسول الله ﷺ . فدفد : الموضع المرتفع . **الهدأة** : اسم مكان .

استمكنوا منهم : تمكنوا بقوة . مجلسه اسم فاعل من أجلس والمعنى يجلسه على فخذه .

وَلَسْتُ أُبالى حينَ أُقْتَلُ مسلماً   على أىِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعى
وذلك فى ذاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ   يُبَارِكْ عَلَى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله ابنُ الحارثِ ، فكان خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الركعتين لكل امرىءٍ مسلمٍ قُتِلَ صَبْراً . فاستجابَ الله لعاصِمِ بنِ ثابتٍ يَوْمَ أُصِيبَ ، فأَخْبَرَ النَّبِىُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُم وما أُصِيبُوا ، وَبَعَثَ ناسٌ من كفارِ قُرَيْشٍ إلى عَاصِمٍ حِين حُدِّثُوا أَنّه قُتِلَ لِيُؤْتَوا بشىءٍ منه يُعْرَفُ ، وكان قد قَتَلَ رَجُلاً من عظمائهم يَوْمَ بدرٍ ، فَبُعِثَ على عاصمٍ مِثْلُ الظُّلَةِ من الدَّبْرِ ، فَحَمَتْهُ من رَسُولِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا على أَنْ يَقْطَعُوا من لحمهِ شَيْئاً » (١) .

دراسة وتحليل :

جعل الله الإسلام خير الأديان ، واعتنق هذا الدين القويم رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، ولم يبال أحد منهم بالموت وقع له أم وقع عليه ، وكان شعارهم : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

وقد حدث للمسلمين فى تاريخهم العظيم كثير من المواقف التى أظهرت صلابة الرجال ، وأنهم أبطال عقيدة وجهاد ، كم أهينوا وعُذّبوا وقاتلوا وقتلوا ﴿ **فما وَهَنُوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا** ﴾ (٢) . وقد خاضوا صابرين كثيراً من الغزوات والسرايا وأظهروا فيها شجاعة وبسالة لم ولن يرى التاريخ لها مثيلاً .

وفى غزوة الرجيع بعث رسول الله ﷺ عشرة من عظماء الرجال فى أواخر السنة الثالثة من الهجرة (٣) ، وعين عاصم بن ثابت الأنصارى أميراً عليهم . لقد ذهبوا عيونا تتجسس على قريش لتنقل إلى رسول الله ﷺ أخبارهم . « فنزلوا بالرجيع سَحَراً فأكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض ، وكانوا يسيرون بالليل ويختفون بالنهار ، فجاءت امرأة من

(١) البخارى كتاب الجهاد والسير جـ ٤ / ٨٢ ــ ٨٣ وكتاب المغازى جـ ٥ / ١٠٠ ــ ١٠٢ مع اختلاف يسير فى الرواية .

معانى المفردات :

ذَرُونى : اتركونى . « اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بَدَداً ولا تُبق منهم أحداً » هكذا فى رواية ذكرها ابن حجر فى فتح البارى ٧ / ٤٤٣ ومعنى (بدداً) متفرقين .

والمراد بالشق فى البيت : الجنب ، والأوصال جمع وصل وهو العضو والشِّلوْ : الجسد ، والممزَّع : المقطع . ومعنى الكلام أعضاء جسد يقطع . الظلة : السحابة . والدَّبْرُ : الزنابير .

(٢) من سورة آل عمران الآية ١٤٦ .   (٣) فتح البارى جـ ٧ / ٤٣٩ .

هذيل ترعى غنما فرأت النواه فأنكرت صغرها وقالت : هذا تمر يثرب فصاحت فى قومها أتيتم ، فجاءوا فى طلبهم ، واقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فى الجبل .

إن الجندى المسلم قوى الإيمان ، رابط الجأش ، إنهم نظروا فإذا بالمشركين قد غشوهم وبأيديهم السيوف .. فلما رآهم أبطال الإسلام اتجهوا إلى مكان مرتفع ، وكلموهم بثبات ودار هذا الحوار :

المشركون : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا .
المسلمون : إنا والله مانريد قتالكم إنما نريد أن نصيب منكم شيئاً من أهل مكة .
المشركون : انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق .
عاصم بن ثابت أمير السرية : أمَّا أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر اللهم أخبر عنا نبيك ، اللهم إنى أحمى لك اليوم دينك فاحم لى لحمى » .

نعم هذا عاصم لم يرض أن ينزل فى ذمة كافر ، وحاول ولكنهم رموه بالنبل وقتلوه مع سبعة من أبطال هذه السرية .. ولكنه لقى ربه راضياً مرضياً ودعا ربه فاستجاب الله له ، فأخبر رسوله ﷺ خبره ، فأخبر أصحابه بذلك يوم أصيبوا .

واستجاب له فى فى حماية لحمه ذلك أنه يعرف أن المشركين لن ينسوا له قتله لعظيم من عظمائهم يوم بدر وهو عقبة بن أبى معيط فإن عاصماً قتله صبراً بأمر النبى ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر (١) .

وها هى قريش فعلاً تبعث إليه ليأتيهم أحد بشىء من جسده يعرفونه ، وكانت نذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر فى قحفه

ولكن كيف ذلك ﴿ **وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُو** ﴾ (٢) لقد أرسل الله عليه مثل السحابة من الزنابير التى تلسع لئلا يقترب أحدٌ من جسده فمنعته منهم فلم يقدروا على شىء منه ذلك أن الزنابير تطير فى وجوههم وتلدغهم فحالت بينهم وبين أن يقطعوا من جسده شيئاً » .

وعن قتادة قال : « كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبداً ، فكان عمر يقول لما بلغه خبره : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما

(١) فتح البارى جـ ٧ / ٤٤٤ .
(٢) سورة المدثر الآية ٣١ .

حفظه فى حياته » [1] .

لقد بقى ثلاثة من أبطال هذه السرية صعدوا فى الجبل فلم يقدروا عليهم حتى أعطوهم العهد والميثاق إنهم : خُبَيْب بن عدى وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ..

إن الكافر لا يرقب فى مؤمنٍ عهداً ولا ذمّةً ، لقد أسروهم واستمكنوا منهم وأوثقوهم ، فقال عبد الله بن طارق : هذا أول الغدر ، ثم حلف ألا يصحبهم ذلك أن فيمن قتلوا عظة وعبرة وإنهم سيفعلون به وبالآخرين ذلك ، حاولوا معه وشدوه بعنف ، وجرُّوه على الأرض فلما أبى قتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة « فأما زيد فاشتراه صفوان بن أمية فقتله بأبيه » .

لقد مات من هذه السرية أشخاص ، فباعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت ، إنهم شهداء أحياءٌ عند ربهم يتمتعون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

صعب على النفس أن يموت الجميع **ويظل خُبَيبٌ** فى إساره **وهو يعلم أنهم سيقتلونه** لامحالة ، فهو صابر محتسب ، لا يعرف الجزع سبيلاً إلى نفسه ، إنّ إخوانه الذي سبقوه إلى دار الخلد يستبشرون به .

وهاهو يمكث عند بنى الحارث بن عامر بن نوفل الذين اشتروه يمكث عندهم أسيراً حتى تنقضى الأشهر الحرم . ولكن كيف حال معاملتهم له ؟ لقد أساءوا إليه فى إساره فقال لهم : **ما يصنع القوم الكرام هذا بأسيرهم ، فتحولوا إلى المعاملة الحسنة وجعلوه عند رجل قال** له خبيب بثبات المؤمنين الصادقين : أطلب إليك ثلاثاً أن تسقينى العذب ، وأن تجنبنى ماذُبِحَ على النُّصُب وأن تُعلمنى إذا أرادوا قتلى » [2] .

ثم تحولوا به إلى امرأة تحرسه تسمى « زينب بنت الحارث » فرأت من كراماته ماأدهشها ، لقد رأت ما جعله الله برهاناً وآية على الكفار لقد رأت فى يده قِطْفاً من عنب مثل رأس الرجل وهو يأكل منه ، ثمار عظيمة . من أين وليس هذا زمان العنب فى مكة إذ

---

(1) فتح البارى جـ ٧ / ٤٤٤ .

(2) فتح البارى جـ ٧ / ٤٤٢ .

قالت « وما بمكة يومئذ ثمر » ولم يخرج الرجل من مكانه فهو مقيد بالحديد .. إنه رزق ساقه الله إليه .

لقد رأت عليه أمارات الخير فطلب منها موسى ليحلق عانته وهو فى هذه الظروف القاسية فوجد صبيا صغيراً يدرج نحوه ، فلم ينسه الموقف خلق الرحمة فحمله على فخذه.. سبحان الله .

ثم هاهم يخرجون به إلى التنعيم ليقتلوه فيطلب منهم أن يتركوه ليصلى وفعلاً صَلَّى ركعتين فى موضع مسجد التنعيم ، ولولا أن يظنوا به جزعاً لأطال هذه الصلاة ولزاد فى عددها .

ثم ها هو يرفع يديه إلى السماء داعياً : « اللهم أحْصِهِم عَدَداً واقتلهم بَدَدَاً ، ولا تُبْقِ منهم أحَدَاً » إنها دعوات مقبولة وفعلاً فم يحل الحول ومن هؤلاء الظالمين أحد حَيٌّ .

ثم قال : « اللهم إنِّى لا أجد من يُبَلِّغُ رسولك منى السلام فبلِّغْهُ » « فجاء جبريل إلى النبى ﷺ فأخبره وأخبر أصحابه بذلك » .. « وسمعه أصحابه وهو يقول : وعليك السلام يا خُبَيْبُ .. قتلته قريش » .

لقد وضعوا فيه السلاح ونادوه وهو مصلوب « أتُحِبُّ أن محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أُحِبُّ أن يَفديني بشوكةٍ فى قدمه »[1] وأنشد البيتين السابقين ..

فها هو خبيب ، يبقى وحيداً بعد أن استشهد أصحابه فيكون أول من سن ركعتين عند القتل ، لقد كان لا يهمه غربته أو كربته ولكن الذى يهمه أن يموت مسلماً مخلصاً وجهه لله تعالى .

سلام عليه فى الخالدين وسلام عليه فى الأبرار والصديقين .

---

(١) تنظر هذه الآثار الواردة فى توضيح القصة فى فتح البارى ٧ / ٤٣٩ : ٤٤٤ .

قصة الرقية بفاتحة الكتاب

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : « انطلق نَفرٌ من أصحابِ النبى ﷺ فى سَفْرةٍ سَافَرُوها ، حتى نَزَلُوا على حيٍّ من أحياءِ العربِ فاستضافوهم فأبَوْا أن يُضَيِّفُوهُم ، فلُدِغ سَيِّدُ ذلك الحَيِّ ، فَسَعَوْا له بكُلِّ شيءٍ ، لا يَنْفَعُه شَيءٌ فقال بعضُهم : لو أتَيْتُم هؤلاء الرَّهْطَ الذين نَزَلُوا لَعَلَّهُ أنْ يكونَ عند بعضهم شيءٌ . فأتَوْهُم فقالوا : يا أيُّها الرهطُ إنَّ سَيِّدَنا لُدِغَ ، وسَعَيْنا له بكل شيءٍ لا ينفعُه ، فَهَلْ عِنْدَ أحدٍ منكم من شيءٍ ؟ فقال بعضهم : نعم والله ، إنِّى لأرْقِى ، ولكنْ والله لقد اسْتَضَفْنَاكم فلم تُضَيِّفُونَا ، فما أنا بِرَاقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعْلاً . فصالحوهم على قطيعٍ من الغنم . فانطلقَ يَتْفِلُ عليه ويَقْرَأُ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فكأنما نُشط من عِقال فانطلق يمشى وما به قلبـــةٌ . قالَ فَأَوْفَوْهُم جُعْلَهُم الَّذى صَالَحُوهُم عَلَيْهِ . فَقَالَ بَعْضُهُم : اقْسِمُوا . فَقَالَ الَّذى رَقَى : لاَ تَفعلُوا حَتَّى نَأْتِىَ النَّبِىَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الذى كانَ فَنَنْظُرَ ما يأمُرنا . فَقَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا له ، فَقَالَ : وما يدريك أنها رُقْيَةٌ ؟ ثم قال : قد أصَبْتُم اقْسِمُوا واضْرِبُوا لى معكم سَهْماً ، فَضَحِكَ رسولُ الله ﷺ »(١) .

دراسة وتحليل :

تروى هذه القصة ما وقع للصحابة حين خرجوا بأمر رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً فنزلوا بحى من أحياء العرب ليلاً فسألوهم القِرى فلم يضيفوهم وأبوا ، وماذا عليهم لو كانوا أضافوهم .. ولكن كان الله تعالى قسم للصحابة فى مالهم نصيباً فمنعوهم ، فلدغ سيد الحى بسبب ذلك حتى يُسَاقَ لهم ماقسم لهم .

وحين لدغ العقرب سَيِّدهم سعوا له بكل شىء مما جرت به العادة أن يتداوى به من لدغة العقرب ، وطلبوا له الشفاء بكل وسيلة فلم يروا أثراً لذلك ، فأشار بعضهم أن يأتوا إلى هؤلاء الرهط لعلهم يجدون عندهم دواء له ، وكان الحوار مع أميرهم أبى سعيد الخدرى

(١) البخارى كتاب الإجارة جـ ٣ / ١٢١ وفضائل القرآن ٦ / ٢٣١ والطب جـ ٧ / ١٧٠ .

معانى المفردات :

النفر : عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة . وفى رواية أنهم كانوا ثلاثين فى سرية وأميرهم أبو سعيد الخدرى . وكان نزولهم ليلاً .

اللدغ : هو اللسع وزنا ومعنى . قَلَبَةٌ : علة ومرض . فصَالحوهم : وافقوهم . القطيع : الطائفة من الغنم . يتفل : ينفخ من رذاذ . نشط من عقال : حل من رباط .

رضى الله عنه قال « نعم والله إنى لَأَرْقِى ، ولكن لا أرقيه حتى تعطونا غنماً » لقد طلب أجره وبين لهم سبب ذلك هو بخلهم باستضافتهم ويذكرنا هذا بقول سيدنا موسى عليه السلام للخضر : ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً** ﴾ (١) .

إن الصحابة ما كانوا يظنون أبا سعيد يحسن الرقية ، وها هم يوافقون **فيُمضى** ماالتزم به ، إنهم سيعطونهم ثلاثين شاة بعدد السرية ، وكأنهم اعتبروا عددهم فجعلوا الجُعْلَ بإزائه مساوياً له .

وها هو أبو سعيد الخدرى ينفخ فى يديه ويقرأ فيهما فاتحة الكتاب ، فهى شفاء لكل داء ، يتفل فى الرقية بعد القراءة لتحصيل بركة القراءة فى الجوارح ، ويروى أنه فعل ذلك سبع مرات .. سبحان الله العظيم .. لقد قام الرجل وهو سيد الحى سليماً معافىً منتصباً على قدميه ، وكأنما حُلَّ من رباط عقل جسده ، وتحرك وما به علة . فها هو الفرح والسرور .. ويا له من أمر عظيم . نعم فالقرآن شفاء وهدى ورحمة ، والفاتحة هى « أعظم سورة فى القرآن وهى السبع المثانى والقرآن العظيم » كما جاء فى حديثه ﷺ (٢) . وقد روى البزار عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت « فاتحة الكتاب » و « قل هو الله أحد » فقد أَمِنْتَ من كُلِّ شىءٍ إلا الموت » (٣) .

وهكذا جاءت القصة درساً عمليا فى فضل فاتحة الكتاب والاستشفاء بها ، وجاءت بصياغة رائعة فقد استعمل (النفر) مجازاً مراداً به (الرهط) إذ الرهط ما دون العشرة ، وقد يصل إلى الأربعين . فأطلعنا على استعمال جديد ، وتأتى مقابلة من امتنع من المكْرُمة بنظير صنيعه لنأخذ منها الدروس والعبر ، كما تطلعنا القصة على اجتهاد الصحابة عند فقد النص وعظمة القرآن فى صدورهم . ويأتى تصوير الواقع كأعظم ما يكون فيمن لدغ سيدهم وسعوا له بكل ما يستطيعون ، وفى حوارهم مع هؤلاء الرهط ، وفى ردهم عليهم . وانطلاق أبى سعيد للرقية .

وقد تتابع العطف بالفاء مما يناسب السرعة التى نراها عند أهل مريض عزيز عليهم وانظر معى إلى هذه الأفعال :

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٧ .
(٢) البخارى فضائل القرآن ٦ / ٢٣١ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ / ٢٧ ط الشعب .

(فلدغ ـــ فسعوا ـــ فقال بعضهم .. فأتوهم .. فقالوا فهل .. فقال بعضهم . فانطلق .. فكأنما .. فانطلق يمشى وما به قَلَبَة) .

وتأتى كلمة (قَلَبة) بمعنى العلة وهى توحى بكثير من المعانى ذلك أن الذى تصيبه تجعله يتقلب على جنبيه ، ويتناسب حركاتها الثلاثة وتأتى كلمة (رُقْيَة) بوزنها الخفيف ذى الجرس اللطيف وفيها علو وارتفاع إذ الفاتحة ترقى إلى السماء مع الدعوات المخلصة فكان الشفاء الذى تمثله هذه الصورة البيانية « فكأنما نُشِط من عِقالٍ » والعِقال فى الأصل هو الحبل الذى يشد به ذراع البهيمة .

ثم تأتى عبارة الرسول ﷺ بما فيها من جمال وتطييب لخاطرهم : « قد أصبتم اقسموا واضربوا لى معكم سهماً » إذ كون الرسول ﷺ يأخذ سهما من هذا الكسب فهو حلال طيِّبٌ لئلا يتبادر إلى تفكير أحدهم أن أجرها كأجر الرقية فى الجاهلية .

جعل الله تعالى القرآن ربيع قلوبنا وشفانا من كل داءٍ .

آية الكرسى وخوف الشيطان منها

أورد البخارى فى كتاب الوكالة باب إذا وَكَّل رجلاً فترك الوكيلُ شيئا فأجازه المُوَكِّل فهو جائز ، وإن أقرضه إلى أجل مُسَمًّى جاز ، وقال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : وَكَّلَنِى رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاةِ رمضانَ فأتانى آتٍ فجعل يَحْثُو من الطعام (١) فأَخَذْتُهُ وقلتُ والله لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ قَالَ إنِّى محتاجٌ وعلىَّ عيالٌ ولى حاجةٌ شديدةٌ ، قال فخَلَّيْتُ عنه (٢) فأصبحتُ فقال النبى ﷺ يا أبا هريرة ما فعل أسِيرُكَ البَارِحَةَ ، قَالَ : قلتُ يا رسولَ الله شكا حَاجةً شديدة وعيالاً فرحمته فَخَلَّيْتُ سبيله ، قَالَ أمَا إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وسَيَعُودُ ، فَعَرَفْتُ أنه سَيَعُودُ لقولِ رسول الله ﷺ إنَّهُ سَيَعُودُ فَرَصَدْتُه (٣) فجاء يَحْثُو من الطعام فأَخَذْتُه فقلتُ لأرفعنَّكَ إلى رسولِ الله ﷺ قَالَ دعنى فإنى محتاجٌ وعلىَّ عيالٌ لا أعود فَرَحِمْتُه فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فقال لى رسولُ الله ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَل أسِيرُكَ قلتُ يا رسولَ الله : شَكَا حاجةً شديدةً وعيالاً فَرَحِمْتُه فَخَلَّيْتُ سَبِيلَه ، قَالَ أمَا إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَرصدته الثالثة ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخرُ ثلاثِ مَرَّاتٍ إنَّكَ تَزعُمُ لا تعودُ ثم تعودُ ، قال دَعْنِى أُعَلِّمكَ كلماتٍ ينفعُك الله بها ، قُلْتُ ما هِنَّ ؟ قَالَ إذا أَوَيْت إلى فِرَاشِك فاقرأ آية الكرسى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ حتى تختم الآية فإنَّكَ لَنْ يَزَالَ عليك من الله حافظٌ ولا يَقْرَبَنَّك شَيْطانٌ حتى تُصبِحَ فَخليْتَ سبيله . فأصبحتُ فقالَ لى رسول الله ﷺ ما فَعَلَ أسِيرُك البَارِحَة ؟ قلتُ يا رسول االله زَعَم أنَّه يُعلِّمُنى كلماتٍ ينفعتى الله بها فخَلَّيْتُ سبيله . قَالَ : ماهى ؟ قلتُ قَالَ لى إذَا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ فَاقرأْ آية الكرسى من أولها حَتَّى تَخْتِم الآية ﴿ **الله لَا إِلَهَ إِلاَّ هُو الحىُّ القَيُّوم** ﴾ وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظٌ ولا يَقْربَك شيطانٌ حتى تُصْبِحَ — وكانوا أحرص شيءٍ على الخير — فقال النبى ﷺ أمَا إنَّه قد صدقك وهو كذوبٌ ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطانٌ » (٤) .

(١) أى يغرف منه . (٢) أى تركته . (٣) أى رقبته .

(٤) البخارى كتاب الوكالة جـ ٣ / ١٣٢ — ١٣٣ وكتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده جـ ٤ / ١٤٩ وكتاب فضائل القرآن جـ ٦ / ٢٣٢ .

قال ابن كثير : ذكر البخارى هذه القصة عن أبى هريرة فى كتاب فضائل القرآن ، وفى كتاب الوكالة وفى « صفة إبليس » من صحيحه (تفسير ابن كثير جـ ١ / ٤٥٢ ، تفسير آية الكرسى) وقال ابن كثير : « كذا رواه البخارى معلقا بصيغة الجزم وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » (ابن كثير جـ ١ / ٤٥٣) .

دراسة وتحليل :

تلك قصة حدثت لأبى هريرة رضى الله عنه حين وكله رسول الله ﷺ بتمر الصدقة الذى كان يجمع فى رمضان ليسد حاجة الفقير فى يوم العيد ، ولكى يغنى الفقراء عن الطواف فى هذا اليوم لكى يشاركوا إخوانهم بهجة العيد وفرحته .

لقد أحس أبو هريرة بأثر كف كأنه قد أخذ من هذا التمر فشكا إلى رسول الله ﷺ فعلمه كيف يسيطر عليه ليمسك به إذ قال له : « قل سبحان من سخّرك لمحمدٍ فقالها فإذا هو به قائم بين يديه فأخذه » وكان الحوار بينهما كالتالى :

أبو هريرة : (لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ) أى لأذهبن بك أشكوك إليه ﷺ .

الشيطان : إنى محتاج وعلىَّ نفقة عيال وإنما أخذته لأهل بيت فقراء من الجن ولا أعود .

فرحمه أبو هريرة وخلَّى سبيله والتمس له العذر . وها هو قد وعد ألا يعود ويمضى أبو هريرة ليلته ويأتى الصباح ويصلى مع رسول الله ﷺ ويسأله : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ كيف علم رسول الله ﷺ ومن أخبره ؟

أبو هريرة : يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً فرحمته فخليتُ سبيله .

الرسول ﷺ : « أما إِنَّه قد كذبك وسيعود » .

ويمضى أبو هريرة وهو موقن بمجىء هذا الذى يختلس من الطعام ويحثو منه ويشكو له كما فعل سابقاً .. إنه عاد وقد ذكر قبل ذلك أنه لن يعود .. ولكنها الرحمة التى تجعله يقبل المعذرة للمرة الثانية . ويذهب أبو هريرة ليعلم مرة أخرى أنه سيأتى فيرصده هذه المرة ولا يقبل معذرته .. ولكنه يلجأ معه إلى حيلة أخرى ذلك أن الصحابة كانوا أحرص الناس على الخير ، فيقول له خلِّ عنى .. « دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها » سبحان الله إن الشيطان هنا يعلم ما ينتفع به المؤمن ، إنه يعلم ولا يعمل ، لقد تصور بصورة أمكن أبا هريرة من رؤيته ها هو يسرق ويخدع ..

لقد قبل أبو هريرة العذر وعرف منه فضل آية الكرسى وأنها تحفظ المؤمن ، وأن هذا الذى يحاوره وهو من الشياطين يدرى مدى انتفاع المؤمن بها إنه لا يستطيع أن يقربه .. لقد ظل أبو هريرة يفكر حتى أصبح فقص على رسول الله ﷺ ما حدث فأخبره بصحته ..

وأعلمه بفضلها .. وأطلعه على سر جديد « لقد صدقك وهو كذوب .. ذاك شيطان » .

أجل .. آية الكرسى تحصين للمؤمنين « من قرأها لا يَقْرَبَهُ من الجن ذكر ولا أنثى صغير ولا كبير » إنها سيدة آى القرآن يقول ﷺ لأُبَىِّ بن كعب : أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أُبَىٌّ : آية الكرسى . قال : لِيهْنك العلمُ أبا المنذر والذى نفسى بيده إن لها لساناً وشفتين تقدِّس المِلِكَ عند ساق العرش » (١) .

كما ورد فى الحديث أنها « تعدل ربع القرآن » (٢) .

فهى آية ما أعظمها ، إنها تسكب فى قلب المؤمن الاطمئنان والحفظ والجلال والجمال فلا معبود بحق فى الوجود إلا الله تعالى فهو الحى الدائم البقاء ، وهو المبالغ فى القيام بتدبير خلقه لا يغفل عنه ، وهو العليم يعلم من خلق وهو الذى لا يخفى عليه شيء من دقائق الأمور وجليلها وقد أحاط علمه بالسمٰوات والأرض ولا يثقله شيء فى كونه فهو (العلى العظيم) سبحانه وتعالى .

وقد ورد مرفوعا عن أبى أمامة قال : اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب فى ثلاث سور : البقرة وآل عمران وطه وقال ابن عمار : أما البقرة فـ ﴿ **الله لا إلـه إلا هو الحى القيوم** ﴾ وفى آل عمران ﴿ **الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ وفى طه ﴿ **وعنت الوجوه للحى القيوم** ﴾ » (٣) .

وقد حدث لمجموعة من الصحابة مثل ذلك اللقاء مع الشيطان ومحادثته مثل أبى بن كعب ، وأبى أيوب الأنصارى ، وأبى أُسَيْد الأنصارى وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل وذكرته كتب الحديث الصحيحة (٤) .

وقد نقل ابن كثير عن أبى عبيد صاحب غريب الحديث أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : خرج رجلٌ من الإنس فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعنى ، فإن صَرَعْتَنى عَلّمتُك آيةً إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطانٌ ؟ فصارعه فصرعه فقال : إنى أراك ضئيلاً شخيتاً كأن ذراعيك ذراعا كلب أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ ٥ / ١٤١ ــ ١٤٢ . (٢) السابق جـ ٣ / ٢٢١ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ / ٤٥٤ ط دار الشعب . (٤) انظر فتح البارى جـ ٤ / ٥٧٠ .

أنت من بينهم ؟ فقال : إنى بينهم لضليع فعاودنى ، فصارعه فصرعه الإنسى فقال : تقرأ آية الكرسى فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خَبَجٌ كخَبَجِ الحمار ، فقيل لابن مسعود : أهو عمر ؟ فقال : مَنْ عسى أن يكونَ إلا عمرُ » (١) .

فهذا عمر فى قوته يصرع شيطانا من الجن ، وها هو قبس من نور الوحى الإلهى — أعنى آية الكرسى — أمان من الشيطان وتحصين فجدير بالمؤمن أن يلوذ بها وأن يقرأها عند كل صباح ومساء .

ونرى فى هذه القصة جمال الصياغة ، وعظيم الهدف ، وحسن التعليم من إمام المرسلين ﷺ .

ومن جمال البناء الدقة فى إيراد الحوار كما حدث لأبي هريرة رضى الله عنه والالتفات فى قوله « وكانوا أحرص شيء على الخير » ولم يقل (وكنا) وحُسْنَ هذا التعليل إذ هو مسوق للاعتذار عن تخلية سبيله بعد المرة الثالثة حرصا على تعلُّم ما ينفع والتأنى فى التربية والتعليم فى تكراره ﷺ لثلاثٍ سؤاله لأبى هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » .

وتشويقه ﷺ أبا هريرة فى قوله « تَعْلَمُ مَنْ تخاطبُ منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة ؟ وتتميمه البليغ الذى هو الغاية فى الحسن فى قوله ﷺ : « أما إنه قد صدقك وهو كذوب » لأنه أثبت له الصدق فأوهم له صفة المدح ثم استدرك ذلك بصيغة المبالغة فى الذم بقوله « وهو كذوب » .

وختاماً فما أعظمها من قصة حقيقية تعلمنا بالإضافة إلى ما سبق أن الحكمة قد يعرفها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها وأن الشيطان يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته ، قال تعالى ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ (٢) ، وأن النبى ﷺ قد أطلعه الله على بعض المغيبات .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ / ٤٥٣ وهو فى غريب الحديث لأبى عبيد حـ ٣ / ٣١٦ بيروت مصورة من ط الهند .

المفردات :

الشخيت : الضئيل النحيف الجسم . الضليع : العظيم الخلق . الخبج : الضراط .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

قصة الإفـك

السيدة عائشة رضى الله عنها من النساء اللائى كملن ، فهى المرأة الخالدة ذات التاريخ العظيم فى الإسلام ، تربت فى بيت كريم فأبوها الصديق رفيق النبى ﷺ فى الغار ، وصاحب الأيادى البيضاء عند رسول الله ﷺ وصحابته ، والممدوح من السماء بآيات تتلى ، وأمها أم رومان أسلمت وهاجرت وتحملت فى سبيل دينها عنتا ومشقة .

والسيدة عائشة زوجة رسول الله ﷺ والتى كان زواجه بها دعماً للإسلام ، وشدًّا لأزر المسلمين ، ونصراً للدعوة ونشراً للسنة ، وكانت جديرة بأمومة المؤمنين وحَرِيَّة بتحقيق الغايات الدينية والاجتماعية التى قصد الرسول ﷺ بزواجه منها إلى تحقيقها .

وحديث الإفك موطن من مواطن الابتلاء فى حياتها ، وامتحان من أقسى الامتحانات وقد نشأ عن شيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أُبَىّ بن سلول رأس المنافقين الذى لم يقلع عن نفاقه ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والوشاية ضد الإسلام والمسلمين هادفا إلى اضطراب الجماعة وزرع الشك فى قلوب أتباع نبى الإسلام ﷺ ولكن هيهات هيهات .

ونحن مع هذه القصة نرى الفتن والضجة الكبرى لهذا الحدث الذى ألم بالمجتمع المسلم ، وتصوير السيدة عائشة رضى الله عنها لنفسيتها وحال أهلها ، وحال المسلمين من حولها ، ونور السماء الذى أزال الظلمة ، وكشف الغمة ، وأنزل براءتها فى آيات تتلى إلى يوم القيامة . وكيف طلع الصباح فحمد القوم السّرى .

وفى صحيح البخارى : « زَعَمُوا أن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً (١) أقْرَعَ بين أزواجه ، فَأَيَّتُهُنَّ خرج سهمها خَرَجَ بها معه . فأقرع بيننا فى غَزَاةٍ غزاها (٢) فخرج سهمى فخرجتُ معه بعد ما أُنْزِل الحجابُ ، فأنا أُحْمَلُ فى هودجٍ (٣) وأُنْزَلُ فيه ، فسرنا حتى إذا فَرَغَ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَلَ (٤) ، ودَنَوْنا من المدينة آذَنَ ليلةً بالرَّحيلِ ، فَقُمْتُ حين آذنُوا بالرَّحيل فَمَشَيْتُ حتى جاوزتُ

---

(١) أى إذا أراد أن يخرج إلى سفر فضمن الفعل معنى ينشىء .

(٢) هى غزوة بنى المصطلق وكانت فى شعبان من العام الخامس للهجرة على الأصح .

(٣) الهودج : محمل له قبة تستر بالقماش ونحوه يوضع على ظهر البعير تركب عليه النساء ليكون أستر لهن .

(٤) قفل أى رجع .

الجيش ، فلما قضيت شأنى أقلت إلى الحل فلمست صدرى ، فإذا عقدٌ لى من جزع أظْفَارٍ (١) قد انقطعَ ، فرجعتُ فالتمست عقدِى ، فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يَرْحَلُونَ لى فاحتملوا هَوْ دَجِى فَرَحَلُوه على بعيرى الذى كنت أرْكَبُ وهم يحسبون أنّى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهنَّ اللحم ، وإنما يأكلن العُلقة من الطعام (٢) . فلم يستنكر القومُ حين رفعوه ثِقَل الهَوْدَجِ فاحتملوه ، وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عِقْدِى بعد مااستَمَرَّ الجيشُ ، فجئت منزلهم وليس فيه أحدٌ ، فأقمت منزلى (٣) الذى كنت به فظننتُ أنهم سيفقدوننى فيَرجعُون إلىَّ فبينا أنا جالسةٌ غلبتنى عيناى فنمتُ ، وكان صفوان بن المُعطَّل السُّلَمِيُّ ثم الذَّكْوَانِيَّ من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سوادَ إنسانٍ نائم (٤) ، فأتانى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه (٥) حتى أناخَ راحلته فوطىء يدها فركبتها ، فانطلقَ يقود بى الراحلَة حتى أتينا الجيشَ بعدما نَزَلُوا معرِّسين (٦) فى نحرِ الظهيرة (٧) . فَهَلَك مَنْ هَلَكَ . وكان الذى تولّى الإفكَ عبد الله بن أُبَىٍّ بنُ سَلُول فَقدِمْنَا المدينةَ فاشتكيت بها شهراً ، والناسُ يُفيضُون من قولِ أصحاب الإفْكِ ، ويَريبُنى فى وجعى أنِّى لا أرَى من النبى ﷺ اللُّطْفَ الذى كنتُ أرى منه حين أمْرَضُ ، إنما يدخلُ فيُسَلِّمُ ثم يَقُول : كيف تِيكُم ؟ لا أشْعُرُ بشىءٍ من ذلك حتى نقهت (٨) فخرجت أنا وأم مِسطَحٍ قِبل المناصع مُتَبَرَّزِنا (٩) ، لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ ، وذلك قَبْلَ أن نَتَّخِذ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا ، وأمْرُنا أمْرُ العرب الأُوَلِ فى البريَّةِ أو فى التَنَزُّه . فأقبلتُ أنا وأم مسطح بنت أبى رُهم نمشى فَعَثرتْ فى مِرطِها فقالت : تَعِسَ مِسْطَحٌ (١٠) . فقلتُ لها : بئس ما قلتِ ، أتَسُبِّين رجلاً شَهِد بدراً ؟ فقالتْ يا هَنْتَاهُ (١١)،

(١) الجزع : خرز فى سواده بياض كالعروق وظفار موضع يتكلم أهله بالحميرية لغة أهل اليمن .

(٢) المراد بالعلقة الشىء القليل الذى يسكن الرمق .

(٣) أممت منزلى : قصدته .   (٤) السواد يطلق على الشخص رجلا كان أو امرأة .

(٥) أى قوله ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ وكان عمر رضى الله عنه يستعمل التكبير عند إرادة الإيقاظ .

(٦) التعريس : النزول فى السفر فى أى وقت كان .

(٧) نحر الظهيرة : أولها وهو وقت شدة الحر .

والريب : الظن والشك . واللطف : الرفق . وتيكم خطاب للمؤنث .

(٨) نقهت بفتح القاف وكسرها أى برأت من المرض ولم يرجع إليها تمام صحتها .

(٩) المناصع : صعيد فسيح خارج المدينة وكان مبترزهم لقضاء الحاجة . أما الكنف : جمع كنيف فهى الساتر والمراد الأماكن التى أعدت لذلك فيما بعد .

(١٠) تعس مسطح : كُبَّ لوجهه أو هلك ولزمه الشر أو بَعُد .

(١١) ياهنتاه : ياهذه أو امرأة أو يا بلهاء وهى خاصة بالنداء وكأنها نسبتها لقلة المعرفة بمكائد الناس .

ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتْنِى بقولِ أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى . فلما رَجَعْتُ إلى بيتى دَخَل علىَّ رسولُ الله ﷺ فَسَلمَ فَقَال : كَيْفَ تِيكُم ؟ فقلتُ ائذن لى إلى أبوىَّ — قَالَتْ : وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما — فأذن لى رسول الله ﷺ فأتيتُ أبوىَّ فقلتُ لأمى : ما يَتَحدَّثُ به الناسُ ؟ فقالت : يا بُنَيَّةُ هَوِّنى على نفسِكِ الشَأْنَ فو الله لَقَلَّما كانَتْ امرأةٌ قَطُّ وضيئةٌ عِنْد رَجُل يحبها ولها ضرائر [١] إلا أكْثَرْنَ عليها . فقلتُ : سبحانَ الله ولقد يَتَحدَّثُ الناسُ بهذا ؟ قالت : فبتُّ تلك الليلة حَتَّى أصبحتُ لا يَرْقَأُ لى دَمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ [٢] . ثم أصبحتُ ، فدعا رسولُ الله ﷺ عَلىَّ ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى [٣] يستشيرهما فى فِراق أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الوُدِّ لهم ، فَقَال أسامةُ : أهْلُك يا رسول الله ولا نعلمُ والله إلا خيراً . وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله لم يُضَيِّقْ الله عليك ، والنساءُ سواها كثيرٌ ، وَسَلْ الجارية تَصدُقْكَ . فدعا رسول الله ﷺ بَريرة فقال : يا بريرةُ هل رأيتِ فيها شيئاً يَرِيُبكِ ؟ فقالت بريرةُ : لا والذى بَعَثَكَ بالحقِّ ، إنْ رأيتُ منها أمراً أَغْمِصُه [٤] عليها قَطُّ أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السِّن تَنامُ عن العجينِ فتأتى الداجن [٥] فتأكله . فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ من يَوْمِهِ فاسْتَعْذَرَ من عبد الله بن أُبَّى بن سَلُول ، فَقَال رسول الله ﷺ : من يَعْذُرُنى مِن رَجُلٍ [٦] بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ماعلمتُ على أهلى إلّا خيراً ، وقد ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلاَّ خَيْراً وَماكَانَ يَدْخُلُ على أهْلى إلاَّ معى . فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ فَقَال : يا رسولَ الله ، والله أنا أعْذُرُكَ مِنه ، إنْ كَانَ من الأَوْسِ ضَرَبْنا عُنُقَهُ ، وإنْ كَانَ مِنْ إخْوانِنا من الخَزرَج أمَرْتَنا فَفَعلنا فيه أمْرَكَ . فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَة وَهُو سَيِّد الخَزْرَج — وكَانَ قَبْلَ ذِلكَ رَجُلاً صَالِحاً ، ولكن احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ [٧] — فَقَالَ : كَذَبْتَ لَعمْرُ الله والله لا تَقْتلهُ ولا تَقْدِر على ذلك . فقَامَ أُسَيْد بن الحُضَير فَقال : كَذَبْت لَعمْرُ الله ، والله لَنقتُلَنَّه ، فَإنَّك مُنَافِق تُجَادِلُ عن المنافقين : فَثَار الحَيَّانِ [٨]

---

(١) ضرائر : جمع ضَرَّة وقيل للزوجات ضرائر لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة .

(٢) لا يرقأ الدمع : لا ينقطع ، لا أكتحل بنوم : لا أنام .

(٣) استلبث الوحىُ : طال لبث نزوله بمعنى تأخر . (٤) أغمصه : أعيبه .

(٥) الداجن: الشاة التى تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى ، وقيل كل ما يألف البيوت مطلقا .

(٦) استعذر منه أى طلب من يعذره منه بمعنى ينصفه وينصره أو ينتقم له منه .

(٧) احتملته الحمية : أغضبته .

(٨) ثار الحيان وتثاورا : نهض بعضهم إلى بعض من الغضب .

الأوْسُ والخزْرجُ حتى همّوا ، ورسولُ الله ﷺ على المنْبر . فنزَلَ فخفضَهُم حتى سَكَتُوا وسَكَتَ . وبَكَيْتُ يومى لا يَرْقأُ لِيَ دَمْعٌ ، ولا أكْتحِلُ بنومٍ فأصْبح عِنْدى أبوايَ وقد بَكَيْتُ ليلتى [أ] ويوماً حتى أظُنَّ أنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدى . قالَتْ : فبَيْنَما هُما جالِسان عِنْدى وأنا أبكى إذْ استأْذَنتْ امرأةٌ من الأنصارِ فأذِنْتُ لها فجلَسَتْ تبكى معى فبينا نحنُ كَذلِكَ إذْ دَخلَ رَسُول الله ﷺ فجَلَس ولم يَجْلِسْ عندى من يومِ قِيلَ فيَّ ما قِيلَ قبْلَها ، وقد مَكَث شهراً لا يُوحَى إليه فى شأْنِى شيءٌ . قالتْ : فتَشهَّدَ ثم قالَ : يا عائِشة فإنَّهُ بَلَغنِى عَنْكَ كذا وكذا ، فإنْ كُنْت بريئَةً فسيُبرِّئُك الله ، وإن كنتِ ألمْمْتِ بذنبٍ [١] فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإنَّ العبدَ إذَا اعْترَف بذنبه ثُمَّ تابَ تابَ الله عليه . فلَمَّا قَضَى رسول الله ﷺ مَقالَتَهُ قَلَص دمعى [٢] حتَّى ما أُحِسُّ منهِ قطرةً ، وقلتُ لأبى : أجبْ عَنِّى رسول الله ﷺ . قال : والله لا أدْرِى ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ . فقُلْتُ لأمِّى : أجيبى عَنِّى رسولَ الله ﷺ فيما قَالَ . قالَتْ : والله ما أدْرِى ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ . قالَتْ وأنَا جارِيَةٌ حديثةُ السِّنِّ لا أقرَأ كثيراً من القُرآنِ ، فقلتُ : إنِّى والله لقد علمتُ أنكم سمعتم مَا يَتحدَّثُ به الناسُ ووقَر فى أنفسكم وصَدَّقتُم به ، وإن قلتُ لكم إنِّى بَريئةٌ ــ والله يَعْلَمُ أنِّى بريئةٌ ــ لا تُصدِّقُونَنِى بذلكَ ، ولئِن اعترفتُ لكم بأمرٍ ــ والله يعلم أنى بريئةٌ ــ لَتُصَدِّقُنِّى . والله ما أجدُ لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذْ قَالَ ﴿ **فصبر جميلٌ والله المُسْتعانُ على ما تَصِفُون** ﴾[٣] ثم تَحَوَّلْتُ على فراشى وأنا أرجو أن يُبرئَني الله ، ولكن والله ما ظننتُ أن يُنْزِلَ فى شأنى وحياً ، ولأنا أحقرُ فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ، ولكنى كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا تبرئنى . فوالله مارَامَ مَجْلِسَهُ [٤] ولا خَرجَ أحدٌ من أهلِ البيتِ حَتَّى أُنزِل عَلَيْه الوَحْىُ فأخَذَهُ ما يأخذُه من البُرحاءِ [٥] حتى إنَّه لَيَتحدَّرُ منه مثل الجُمَان [٦] من العَرَقِ فى يومٍ شاتٍ [٧] . فلما سُرِّى [٨] عن رسول الله ﷺ وهو يَضْحَكُ فكَانَ أوَّل كَلِمةٍ تَكَلَّم بها أنْ قَال لى : يا

---

(١) ألممت بذنب : وقع منك على خلاف العادة .

(٢) قلص دمعى : استمسك نزوله فانقطع وسبب ذلك شدة المصيبة .

أ ــ وفى رواية « ليلتين ويوماً » .

(٣) سورة يوسف الآية ١٨ .

(٤) أى ما فارق مجلسه .

(٥) أى شدة الحمَّى وقيل شدة الكرب ، وقيل شدة الحَرّ .

(٦) الجمان بالتخفيف : حب يعمل من الفضة كاللؤلؤ ، وقيل هو اللؤلؤ ، وقيل خرز أبيض . والكلام على سبيل التشبيه .

(٧) أى من أيام الشتاء أو فيه شتاء .

(٨) أى كشف .

عَائِشَةُ احمدى الله فَقَد بَرَّأَكِ الله . فَقَالَت لِى أُمِّى : قُومِى إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقُلْتُ : لا وَالله لا أَقُومُ إِلَيْهِ ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ الله . فَأَنْزَلَ الله تعالَى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْك عُصْبَةٌ مِنْكُم** ﴾ الآياتِ (١) فَلَمَّا أَنْزَلَ الله هَذَا فى بَرَاءَتى قَالَ أَبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِى الله عَنْهُ — وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطح بن أُثَاثَةَ لِقَرَابته مِنهُ — وَالله لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ بشىءٍ أَبَداً بَعْدَ ما قَالَ لِعَائِشَةَ ، فَأَنْزَلَ الله تعالى ﴿ **ولا يَأْتَلِ أُولُو الفضلِ مِنْكُم والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا** — إلى قوله — **غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٢) فَقَالَ أَبُو بكرٍ : بَلَى وَالله ، إِنِّى لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِى ، فَرَجَعَ إِلَى مِسطَح الَّذِى كَانَ يُجْرِى عَلَيهِ . وَكَان رسُولُ الله ﷺ يَسْأَلُ زَينَب بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرى ، فَقَالَ : يَازَيْنَبُ مَا عَلِمْتِ ؟ مَارَأَيْتِ ؟ فَقَالَتْ : يَارَسُولَ الله أَحْمِى سَمْعِى وَبَصَرِى ، والله مَا عَلِمْتُ عليها إِلاَّ خَيْراً . قَالَتْ : وَهِىَ الَّتى كَانَتْ تُسَامِينى (٣) ، فَعَصَمَها الله بِالوَرَعِ (٤) » .

دراسة وتحليل :

إذا كانت القصة تتناول عناصر مهمة هى التصميم والأشخاص ، والحوار والزمان ، والمكان . فنحن هنا مع هذه القصة الحقيقية التى جاءت بعبارات السيدة عائشة وهى الفصيحة البليغة بهذا التصميم الذى تشع عليه أنوار المدرسة التى تعلمت فيها ، وبيت النبوة الذى أمر الله من فيه أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة .

يبدأ الحديث بـ « زعموا أن عائشة » وهو مناسب للإفك ولم يقل الرواة (قالوا) والزعم قد يقع موقع القول وإن لم يكن فيه تردد .

وقولها « فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد مانزل الحجاب » قالته توطئة للسبب فى كونها كانت مستترة فى الهودج حتى أدى ذلك إلى تحميله وهى غير موجودة فيه مع ظنهم أنها فيه بخلاف ما كان قبل الحجاب فلعل النساء كن يركبن ظهور الرواحل بغير هوادج ، أو يركبن الهوادج غير مستترات ، فما كان يقع لها الذى يقع بل كان الذى يخدم بعيرها يعرف ما إذا كانت ركبت أم لا .

---

(١) الآيات العشر كلها من سورة النور من ١١ إلى ٢٢(٢) من الآيات السابقة .

(٣) أى تعالينى من السمو وهو العلو والارتفاع والمعنى أنها كانت تطلب من العلو والرفعة عند رسول الله ﷺ ما أطلب .

(٤) أى بالمحافظة على دينها ومجانبة ما تخشى سوء عاقبته . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الشهادات جـ ٣ / ٢٢٧ : ٢٣١ وكتاب التفسير سورة النور جـ ٦ / ١٢٧ : ١٣٢ .

وكذا قولها « وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن » وكذا قولها « فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن » أى أنها مع نحافتها كانت صغيرة السن وذلك أبلغ فى خفتها .

ويدل ذلك أيضا على أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانو فى غاية الأدب معها ، والمبالغة فى ترك البحث عما فى الهودج بحيث أنها لم تكن فيه وهم يظنون أنها فيه ، وكأنهم جوزوا أنها نائمة .

ثم هى المصونة التى لم ير صفوان أو غيره وجهها بعد نزول آية الحجاب . ونرى ذلك فى قولها « فرأى سواد إنسان نائم » وقد غطت وجهها أى ماانكشف منه وهى نائمة .

وقولها « والله ما كلمنى كلمة » إشارة إلى أنه استمر منه ترك المخاطبة لها « ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته » وفى رواية « حين أناخ راحلته » .

وعلى التقديرين فالنفى فى (حين) مقيد بحال إناخة الراحلة فلا يمنع ما قبل الإناخة ولا ما بعدها .

وفى (حتى) معناه بجميع حالاته إلى أن أناخ ، ولا يمنع ما بعد الإناخة . وقد فهم علماؤنا من هذا التعبير أنها أرادت نفى المكالمة مطلقا وأنه استعمل معها الصمت اكتفاء بقرائن الحال مبالغة منه فى الأدب وإعظاماً لها وإجلالاً .

ونرى من التكريم كونه يسهل لها الركوب ولا يمسها ويطأ على يد الدابة حتى تركب السيدة عائشة وينطلق يقود بها الراحلة حتى يصلا إلى الجيش .

ثم من هى السيدة عائشة ؟! إنها التى تربت فى بيت الصديق أبيها وتزوجها رسول الله ﷺ صغيرةً يوحى من السماء ورأى صورتها . نرى أدبها فى عبارتها « فهلك من هلك » فأبهمت القائل وما قاله ، وأشارت بذلك إلى من تكلموا فى الإفك وخاضوا فيه . وكذا فى أدبها حين قالت لأم مسطح « أتسبين رجلا شهد بدراً ؟! » وفى استئذانها من رسول الله ﷺ لتأتى أبويها .

تصوير المشاعر :

ونرى صدق تصويرها لمشاعرها وأحاسيسها أمام هذا البهتان العظيم تقول « فبينا أنا

جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت » نعم أرَّقها هذا الافتراء وحملها غمًّا ، جعلها كثيرة النوم ذلك أن من شأن الغـم « وهو وقوع ما يكره » غلبة النوم ، بخلاف الهم « وهو توقع ما يكره » فإنه يقتضى السهر .

ودقة إحساسها فى قولها « وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى من رسول الله ﷺ اللُّطْف الذى كنتُ أرى منه حين أشتكى » فانظر إلى قولها الذى يوضح أنها رأت الفرق فى المعاملة بين ما كان وما هو كائن حال الشدة والأزمة ، تقول : « فازددت مرضاً على مرضى » .

لقد استمر الابتلاء مدةً فلم يكن يوماً أو يومين أو أسبوعاً وإنما ظل فترة طويلة ذكر السهيلى أنها كانت سعبة وثلاثين يوماً [1] ، وعند ابن حزم أنها كانت خمسين يوماً أو تزيد [2] .

لقد تعجبتْ حينما علمت « فقلتُ سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ » « فقلتُ لأمى غفر الله لك ، يتحدث الناس بهذا ولا تذكرين لى » .

ثم هذا الأمر المروِّع الذى ملأ البيت حزناً ، وشغل الأب والأم ، وأمرض البُنَيَّة الصغيرة تصوره رواية حاطب عن علقمة وهى تقول : « ورجعتُ إلى أبوىَّ فقلت أما اتقيتُما الله فىَّ ، وما وصلتما رحمى يتحدث الناس بهذا ولم تعلمانى » [3] وفى رواية هشام بن عروة « فاستعبرتُ فبكيتُ فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فقال لأمى : ما شأنها ؟ فقالت بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه فقال : أقسمتُ عليك يا بُنَيَّة إلاّ رَجَعْتِ إلى بيتك فرجعتُ » [4] .

موقف ابتلاء :

وهكذا المنافقون فى كل مكان يقضّون المضاجع ويبلبلون الخلق ، وينشرون الباطل . ولكن المؤمن ثابت بطبعه ، صابر فى كل أمره ، يـزن ما يقول ويقدر ما يعمل .

وبهذا الثبات خرجت إجابات المؤمنين قائلين ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ لقد استبعدت الجارية بريرة ذلك ومدحت السيدة عائشة بأسلوب رائع فقالت : « إنْ رأيت

(١ ، ٢) كذا نقل عنهما ابن حجر فى فتح البارى جـ ٨ / ٣٣١ .

(٣) فتح البارى جـ ٨ / ٣٢٣ . (٤) فتح البارى جـ ٨ / ٣٢٣ .

عليها أمراً أغْمصُه سوى أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها » أى ما رأيت عليها مما تسألون عنه شيئا أصلاً وأما من غيره ففيها غلبة النوم لصغر سنها ورطوبة بدنها . وهذا من الاستثناء البديع الذى يراد به المبالغة فى نفى العيب . فغفلتها عن عجينها أبعدُ لها من مثل الذى رميت به وأقرب إلى أن تكون من المحصنات الغافلات وقالت أيضا : « ما علمتُ منها إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر » . وهل يعلم الصائغ على الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب ؟! .

وقالت أيضا : « والله لعائشة أطيب من الذهب ولئن كانتْ صنعتْ ما قال الناس ليخبرَنَّك الله فعجب الناس من فقهها »[1] .

هذه اللغة الرائعة :

ونحن هنا نرى بلاغة السيدة عائشة رضى الله عنها فى صياغة الحديث وتصوير الواقع بألفاظ قوية مختارة ، وعبارات رصينة وصدق فى الإحساس ، وبيان لحال الناس يومها وجو البيت ـــ أعنى بيت أهلها ـــ وما ساده من هم وغم ، ودقة ملاحظتها فى تغير ملاطفة الرسول ﷺ لها . وأدبها الجم فى هذه الظروف القاسية فلم تتطاول بكلمة على أحد وهى مظلومة حقيقةً ، وإنما تمَثَّلت بقول سيدنا يعقوب عليه السلام ولاذت بالصبر وكما قالوا :

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقة لكنْ عواقُبه أحلى من العسل

ونرى فى اختيارها للألفاظ دقة مثل « والناس يُفيضون فى قول أصحاب الإفك » فالفعل (يفيض) مناسب لانتشار الشائعة وترددها على الألسنة .

وقولها « فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضى الله عنهما حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله » فقد عدلت عن (فراق) إلى (فراق أهله) وذلك لكراهتها التصريح بإضافة الفراق إليها . واحتراسها فى قولها « فرأى سواد إنسان » وتشبيهها لقطرات عرقه ﷺ بالجُمَانِ فى الصفاء والحسن .

كما يتجلى فقهها حينما قالت « لا أحمد إلا الله » فقد أنزل براءتها من السماء قرآنا يتلى إلى قيام الساعة وتعبيرها هنا أيضا على سبيل القصر . وذلك لأنها حينما سمعت الآيات بتركيبها الإلهى البديع ، وإعجازها العظيم أدركت بفطرتها قوة الحجة وعاقبة الخير الذى أراده

---

(١) هذه الإجابات فى رواياتها المتعددة ذكرها ابن حجر فى فتح البارى جـ ٨ / ٣٢٦ .

الله لها ، وعقاب الله للعاصين الذين اتهموها بغير حق ، فقد نقل عن الزمخشرى قوله : « لم يقع فى القرآن من التغليظ فى معصيةٍ ما وقع فى قصة الإفك بأوجز عبارة وأشبعها لاشتماله على الوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام القول فى ذلك واستشناعه بطرق مختلفة وأساليب متقنة . كل واحد منها كافٍ فى بابه بل ما وقع منها من وعيد عبدة الأوثان إلا بما هو دون ذلك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ وتطهير من هو منه بسبيل » (١) .

ولهذا أحسن حسان فى شعره حين مدحها بقوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصبِحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل

فهى حصان ممتنعة على الرجال فلا ينظر إليها أحد ، رزينة قليلة الحركة لا ترمى بشك إطلاقا ، ولا تغتاب أحداً فالشطر الثانى استعارة أراد بها تبرئتها من اغتياب الناس ، وهى التى لاكت الألسن سيرتها بالباطل فى الإفك .

فنرى هنا بناء القصة وتصميمها هذا التصميم الرائع يدل على بلاغة السيدة عائشة رضى الله عنها فقد ظهرت الأحداث مترابطة يؤدى بعضها إلى بعض واتجهت إلى التعقيد ، وكان الابتلاء والامتحان ثم كان الفرج بتبرئة السماء لأم المؤمنين ، وبيان عدل الله فى اقتصاصه ممن أتوا بهذا البهتان .

أما الأشخاص فأم المؤمنين عائشة وهى تقية نقية ، وصفوان ابن المعطل السُّلمى كان صحابيا فاضلا ، ومسطح بن أثاثة ممن شهد بدراً ، وبريرة وأسامة بن زيد ، وعلى بن أبى طالب وأبو بكر وزوجه وأم مسطح .

أما صاحب الفتنة الأفّاك فهو عبد الله بن أبى بن سلول وكان منافقا نزلت فى حقه آيات . وهو المراد بقول الله تعالى فى قصة الإفك ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾(٢) .

وقد اتضح من القصة ما كان لكل واحد منهم من دور أمام هذا الحدث وما دار من حوار .

وقد وقع ذلك الحدث وتلك القصة حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التى

(١) ابن حجر فى فتح البارى جـ ٨ / ٣٣٥ .

(٢) سورة النور الآية ١١ .

لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين ، وكان ذلك عند انصرافه من غزوة بنى المصطلق التى كانت على الأصح فى شعبان من العام الخامس للهجرة (١) .

وقد كان خيراً وكان من نتيجة حكمة رسول الله ﷺ فى معاملة عبد الله بن أبى بن سلول أن انحسر عنه قومه وكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون أمره فباء بالخزى فى الدنيا وله فى الآخرة عذاب النار .

أما السيدة عائشة رضى الله عنها فقد استأذن عليها ابن عباس وهى فى سكرات الموت وقال لها : أنت بخير إن شاء الله تعالى زوجة رسول الله ﷺ ولم ينكح بكراً غيرك ونزل عُذْرُك من السماء » (٢) .

« أبشرى ما بينك وبين أن تلقى محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد » (٣) .

سلام عليها فى الخالدين وسلام عليها فى الأبرار والصديقين .

---

(١) فقه السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى ص ٢١٤ . (٢) البخارى كتاب التفسير جـ ٦ / ١٣٣ .
(٣) رواية ابن ذكوان فى الحديث السابق فتح البارى جـ ٨ / ٣٤١ .

الكسب الحلال وورع أبى بكر رضى الله عنه

عن عائشة رضى الله عَنهَا قَالَتْ : « كان لأبى بكرٍ غُلَامٌ يُخرجُ لَهُ الخَرَاجَ ، وكَانَ أبو بكرٍ يَأْكُلُ من خَرَاجِه ، فَجَاء يوماً بشىءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أبو بكرٍ ، فقال له الغلامُ : أتَدْرى مَاهَذَا ؟ فقَالَ أبو بكرٍ وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فى الجاهلية ، وما أُحْسِنُ الكِهانَةَ ، إلاَّ أنّى خَدَعْتُه فَأَعْطَانِى بِذَلِكَ ، فَهَذَا الَّذِى أَكَلْتَ مِنْهُ ، فَأَدْخَلَ أبو بكرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَىءٍ فى بَطْنِهِ » (١) .

دراسة وتحليل :

الحلال بَيِّن ، والحرام بيّن ، والتمتع بالحلال خَصْلَةُ أهل التدين وشعار كل مؤمن صادق أمين .

أما أكل الحرام فهو سهل ليِّن عند أهل الإثم والمنكرات وقد أمرنا الله تعالى بالأكل من حلال ، ونهانا عن الحرام وأباح لنا الانتفاع بكل ما فى الكون من طيبات ، ولم يحرم علينا إلا ما كان ضاراً بالصحة أو الدين ، أو ما كان فيه ظلم للناس كالربا والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل إلى غير ذلك من الأمور التى يدركها الإنسان بفطرته ، إذ معرفة الحلال من الحرام من الأمور المتركزة فى الفطرة الإنسانية . وهذا معنى قوله : (بَيِّن) أى ظاهر واضح .

وإذا كان بين الحلال والحرام تلك العقبة التى هى المُشَبَّهات أو المشتبهات أو المتشابهات كما فى رواية حديثه ﷺ (٢) « فَمَنْ اتَّقى الشُّبُهاتِ فقد اسْتَبْرأ لِدِينهِ وعِرْضِه ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَات كراعٍ يرعى حَوْلَ الحمى يُوشِكَ أَنْ يُوَاقِعهَ أَلَا وَإِنَّ لكِلِ ملكٍ حِمىً ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى الله فى أرضه محارمه » (٣) .

ذلك أن « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » .

---

(١) البخارى المناقب باب أيام الجاهلية جـ ٥ / ٥٣ ـــ ٥٤ .

معانى المفردات :

يخرج الخراج والخَرْج بمعنى أن يؤدى العبد غَلَّته لسيده . الكِهانة : يقال تكهن كِهانة مثل كتابة إذا ادعى هذه الحرفة والكاهن : الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار . وقد حرّمها الإسلام ، وشدّد فى ذلك .

(٢) انظر الروايات فى فتح البارى جـ ١ / ١٥٤ .　　(٣) البخارى كتاب الإيمان جـ ١ / ٢٠ .

ولذلك كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم حريصين على الابتعاد عما فيه شبهة وكانوا يقولون : « أعلى الورع ترك الحلال مخافة الحرام كترك النبى ﷺ تمرة مخافة كونها من الصدقة وترك ابن أدهم أجرته لشكه فى وفاء عمله وبات طاويا من جوع شديد ، ومكث الإمام النووى مدة إقامته بالشام لا يأكل من ثمارها لما قيل إن فى بساتينها بستاناً ليتيم . ومكثت السيدة بديعة الإيجية بمكة أكثر من ثلاثين سنة لا تأكل مما يجلب من بجيلة من ثمار ولحوم وغيرهما لما قيل إنهم لا يورثون البنات ، وامتنع أبوها من تناول تمر المدينة لما قيل إنهم لايزكون . وقالت أخت بشر الحافى للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا أيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟ فقال : من أنت عافاك الله ؟ فقالت : أخت بشر الحافى ، فبكى الإمام أحمد رحمه الله وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فى شعاعها » (١) .

سبحان الله نماذج بشرية تمثل الورع والاستبراء للدين والعرض نقرأها فى زماننا وقد انتشرت السرقة والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل .. أين نحن من هؤلاء المسلمين الصادقين إن الحديث عن الصالحين لا يُمَلُّ ، وعلى حد قول القائل :

وَجَدَّثْتَنِى يا سَعْدُ عنهم فزِدْتَنى
شُجُوناً فزِدْنى من حَدِيثِك يَا سَعْدُ
هَواهُمْ هَوَىً لاَ يعْرِفُ القلبُ غَيْرَهُ
فَلَيْسَ لَهُ قَبْلٌ وَلَيْسَ لَهُ بَعْدُ

وها هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى كان يترك أنواعاً من الحلال مخافة الوقوع فى الحرام لأنه كان ورعاً تحكى السيدة عائشة رضى الله عنها فى هذه القصة التى معنا موقفاً له من هذه المواقف إذ كان له غلام « والعبد وما ملكت يداه لسيده » فكان يأتى بكسبه لأبى بكر ، وكان أبو بكر إذا جاءه الغلام بطعام لا يأكل منه حتى يعرف مصدره وفى ذات يوم أتاه بطعام فحمله الجوع الشديد على الأكل منه بدون سؤال .. فتعجب الغلام وقال : يا سيدى لِمَ لم تسألنى عن مصدر ما آتيتك به اليوم ؟

أبو بكر : حملنى على ذلك الجوع الشديد من أين أتيت به يرحمك الله ؟ .

---

(١) هذه الأمثلة فى كتاب فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى للشيخ عبد الله الشرقاوى جـ ١ / ٨٢ ط صبيح ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م .

الغلام : كنت قد تكهنت لإنسان فى الجاهلية مع أننى لا أعرف فى الكهانة شيئاً ، لقد خدعته فصادف قولى ما صادف ، فسجعت له أسجاعاً فأعطانى هذا الأكل الذى بين يديك .

أبو بكر : كدت تهلكنى وها هو يضع إصبعه فى فيه ليقيء هذه اللقيمات التى تناولها .

أحد الحاضرين : يحضر كوزاً مليئا بالماء وهكذا حتى خرجت اللقمة . فيقول له : كل هذا يرحمك الله من أجل هذه اللقمة .

أبو بكر : والله لو لم تخرج إلا مع روحى لأخرجتها لأنى سمعت النبى ﷺ يقول : « كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ من سُحْتٍ فالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » (١) وأخشى أن ينبت شيء من جسدى من هذه اللقمة . سبحان الله .. هكذا يجمل حديث البخارى هذه القصة وتوجزها ابنته السيدة عائشة رضى الله عنها فى سطور معدودات ولكنها دستور خالد ونبراس واضح لمن خاف الحرام وحرص على الحلال .. وتمثل بما فى الكون من خلق الله الحريص على الطيب يأكله ويطعمه غيره ويتصدق به ، ويتقرب إلى الله تعالى بإنفاقه .

وكما قال الحكماء : كن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيبا وإن أطعمت أطعمت طيبا ، وإن وقعت على شيء لم تخدشه .

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب الورع عن ابن سيرين قال : « لَمْ أَعْلَمْ أَحَداً اسْتَقَاء من طعامٍ غير أبى بكرٍ » (٢) .

---

(١) روى الحديث الترمذى وابن حبان فى صحيحه . (٢) فتح البارى جـ ٧ / ١٩٠ .

لا شفاعة فى حد من حدود الله

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أَهَمَّهُم شأْنُ المرأةِ المخزومية التى سَرَقَتْ ، فقالوا : ومن يُكَلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يَجْتَرِىءُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ حِبُّ رسول الله ﷺ فكَلَّمَهُ أسامةُ ، فقال رسول الله ﷺ : أَتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حدودِ الله ؟! ثم قام فاختطبَ ، ثم قالَ : إنما أَهْلَكَ الذين قبلكم أَنَّهُم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشريف تركوه ، وإذا سَرَق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحَدُّ ، وايمُ الله لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَتْ لقطعتُ يَدَها » (١) .

دراسة وتحليل :

هذه القصة تتعلق بامرأة شريفة من بنى مخزوم هى فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسود بن عبد الله بن عمرو المخزومى ، وكانت قد سرقت حليا ــ أعنى ذهبا من زينة لأنثى ، أما الزمان فكان ذلك فى غزوة فتح مكة (٢) .. إنها حادثة عجيبة وغريبة فى تطبيق الشريعة والناس كانوا قريبى عهد بالجاهلية . لقد شغل قبيلة قريش هذا الأمر وفكروا فيه واهتدوا إلى وساطة بينهم وبين الرسول القائد ﷺ لعله ــ على عادة الملوك والمسئولين ــ يقبل الشفاعة فيعفو عنها ، أو يخفف الحكم فلا يقطع يدها بل يقبل منها فدية مثلاً .

ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ إنهم يحتاجون إلى شخصية محبوبة عند رسول الله ﷺ .. لقد فكروا فى شفيع لا ترد شفاعته .. وجال بخاطرهم أيكون الشفيع ذكراً أم أنثى والعربى يقول :

ليس الشفيع الذى يأتيك مُؤْتَزِراً　　　مثلَ الشَّفيع الذى يأتيك عُرْياناً (٣)

فمروا بأم سلمة رضوان الله عليها ، وبزينب ابنتها ربيبة رسول الله ﷺ ، ثم لجأوا إلى أسامة بن زيد رضى الله عنهما (٤) فهو حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّه . وله دلاله وجمال

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ / ٢١٣ والشهادات جـ ٣ / ٢٢٣ والمناقب جـ ٥ / ٢٩ والحدود جـ ٨ / ١٩٩ مع اختلاف يسير فى الروايات .

معانى المفردات :

أهمهم : أجلب إليهم الهمَّ فأحزنهم . المرأة المخزومية : امرأة من بنى مخزوم . حِبُّ رسول الله ﷺ : حبيبه . من يجترىء : الجرأة هى الإقدام بإدلال .

(٢) فتح البارى جـ ١٢ / ٩١ .

(٣) كتاب الفاخر فى الأمثال لأبى طلب المفضل بن سلمة ص ٣١٠ ط الهيئة المصرية للكتاب .

(٤) ذكر ذلك ابن حجر فى فتح البارى جـ ١٢ / ٩٧ .

إقدامه ، فقد كان أبوه يوما يدعى « زيد بن محمد » إلى أن حرم الإسلام التبنى ، كما أن أباه هو الصحابى الوحيد الذى نال وسام التشريف بذكر اسمه فى سورة الأحزاب .

فجاء أسامة وكلمه ، وما كان يدرى عواقب هذا التكليم وتلك الشفاعة التى ظنها يسيرة ، لقد رأى غضبا شديداً ، وما كان رسول الله ﷺ يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله تعالى ، وأنكر عليه شفاعته فى حد من حدود الله .

ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك ، بل تفاديا لهذا المصير المرعب يتخذ وهو الحاكم اجراءات غير عادية تتمثل فى :

أ ــ اجتماع طارىء يناقش فيه هذا الأمر .

ب ــ يلقى خطبة جامعة .

جـ ــ إن الخطبة مركزة شديدة اللهجة .

د ــ يرسم صورة رهيبة منفرة للمحاباة فى حدود الله وأنها انتكاسة إلى الجاهلية وأنها كانت سببا فى هلاك الأمم السابقة .

ياله من أمر عجيب ، جُمِعَ له الناس ، فسمعوا هذه الخطبة بما فيها من نصح واشفاق ، ومع أنه ﷺ كان لا يواجه أحداً بمكروه . فلا فضيحة فى هذه النصيحة ، فدَرْءُ المفاسد مقدم على جلب المصالح . وهذه قضية خطيرة ، والناس أمام شرع الله سواء ﴿ **اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتَّقُوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملونَ** ﴾ (١) .

ثم إن الخطبة شديدة اللهجة هزت المشاعر ، وقتلت المحاباة من النفوس ، وأصلحت خللا حَّدثت الأمة نفسها به ، وما أجملها من عبارة خالدة : « وايم الله لو أن فاطمة بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدها » وحاشاها الله .

وهنا سكت الجميع ، وسلموا أمام شرع الله العادل ، ورسوله القائد الذى لا يحابى ولا يخادع بل أقام شريعة ربه الغراء على العدل فى الأنصار والأعداء والمتبعين له والمعارضين على السواء .

ونادى رسول الله ﷺ بلالاً : « **قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها** » (٢) **فقالوا سمعنا وأطعنا ، واتضح لهم بهذا الدرس العملى أن الإسلام ينكر المحاباة ويشدد فى ذلك ، وسيبقى**

---

(١) سورة المائدة من الآية ٨ .

(٢) من رواية النسائى كما فى فتح البارى جـ ١٢ / ٩٨ .

ذلك عبرة لمن اعتبر ، وحصنا لمن خاف الله والدار الآخرة ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[1] .

وقد صورت القصة هذا الحدث أتم تصوير بإيجاز ودقة ، ورسمت لنا أثر عبارة أسامة عند رسول الله ﷺ ، وما ترتب على ذلك من درس بليغ وخطبة شديدة اللهجة .

وقد تنوع الكلام فيها بين الخبر والاستفهام ، وجاء الاستفهام الإنكارى « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟! فلم يستطع أسامة رداً ، ثم جاء القسم « وايم الله » وفى روايات أخرى « والذى نفسى بيده » « والذى نفس محمد بيده » وقد ورد أن أسامة قال : « استغفر لى يارسول الله »[2] .

وقد جاء فى القصة « ثم قام فاختطب » فعطف بثم ، وذلك دقيق جداً إذ سبق الخطبة الإعلان عنها ودعوة الناس إليها وقد ورد فى رواية يونس « فلما كان العَشِىُّ قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله بما هَو أهله ، ثم قال أما بعد »[3] .

وجاء التعبير بـ (اختطب) ولم (خطب) لأن (افتعل) أقوى فى المعنى من (فعل) .

---

(١) سورة ق الآية ٣٧ .

(٢) فتح البارى جـ ١٢ / ٩٦ .

(٣) السابق ص ٩٧ .

العدل بين الأولاد

عن حُصَين عن عامرٍ قَالَ : « سَمِعْتُ النُّعْمانَ بن بَشِيرٍ رَضِىَ الله عنهما وهو على المنبر يَقُولُ : أَعَطانِى أَبِى عَطِيَّةً ، فَقَالتْ عَمْرَةُ بنتُ رَوَاحَة: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ الله ﷺ . فَأَتَى رسولَ الله ﷺ فقَالَ : إِنِّى أَعَطيتُ ابنى من عَمْرَة بنتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً ، فَأَمَرَتْنِى أَنْ أُشْهِدَكَ يا رسولَ الله . قَالَ : أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْل هَذا ؟ قَالَ : لاَ . قَالَ فاتَّقُوا الله واعْدِلُوا بينَ أَوْلاَدِكُم . قَالَ فَرَجَع فَردَّ عَطِيَّتَهُ » (١) .

دراسة وتحليل :

العدل من الأمور التى حرص الإسلام عليها ، فدعا إليه وأوضح قواعده ، وبَيَّن مظاهره . وما أعظم أن يكون المرء عادلاً فى محيط أسرته ومع أولاده بقول ﷺ : « اعدلوا بين أولادكم فى العطية » (٢) وترسيخا لهذا المبدأ « اشترى النبى ﷺ من عمر بعيراً ، ثم أعطاه ابن عمر وقال : اصنع به ما شئتَ » (٣) ذلك أنه ﷺ لو سأل عمر أن يهب البعير لابنه لبادر إلى ذلك ، لكنه لو فعل لم يكن عدلا بين أولاد عمر ، فلذلك اشتراه ﷺ منه ثم وهبه لعبد الله .

والقصة التى معنا تحكى لنا حادثةً وقعت فى عهده ﷺ وكثيراً ما يتكرر مثلها فى كل زمان وبخاصة فى زماننا هذا ، وذلك يعطينا صورة لما يقع فى نفوس كثير من النساء من الحرص على مصلحة أبنائهن بدافع العاطفة بصرف النظر عن عواقب الأمور مما يترتب عليه حرمان الأبناء الذين هم من زوجة أخرى ، أو حرمان الأشقاء أو الشقيقات .

وهذا الأمر خطير يؤدى إلى الفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام .

إن شخصيات القصة هنا أمام سيدنا رسول الله ﷺ ثلاثة من أسرة واحدة هم : النعمان بن بشير ، وأبوه بشير بن سعد الخزرجى ، وأم النعمان عمرة بنت رواحة .

فالأب صحابى جليل من الأنصار ، شهد بدرا وغيرها ، وكان أول من بايع أبا بكر

---

(١) البخارى كتاب الهبة جـ ٣ / ٢٠٦ وكتاب الشهادات جـ ٣ / ٢٢٤ .

معانى المفردات :

ورد « إنى نحلت ابنى هذا غلاماً » والنِّحْلَةُ : العطية بغير عوض .

(٢) البخارى كتاب الهبة جـ ٣ / ٢٠٦ . (٣) السابق نفسه .

رضى الله عنه من الأنصار (١) .

والأم أخت عبد الله بن رواحة أحد شعراء الرسول ﷺ .

أما الابن فهو أول مولود ولد فى الأنصار بعد قدوم النبى ﷺ وكان من أخطب الناس ، ولى الكوفة وحمص (٢) .

لقد طلبت الزّوجة من زوجها لكى تربى ابنه منها أن يمنحه شيئاً من أفضل ما له ، فتحير الأب لأن له أولاداً آخرين منها ومن غيرها فلماذا النعمان بالذات ؟ إن عاطفة الأبوة لا تتجزأ وإن الأبناء أمام الأب الحكيم سواء كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . ولذلك لم يتسرع هذا الصحابى الجليل بل مطلها مدة طويلة فعن مسلم والنسائى « فالتوى بها سنة » (٣) وعند ابن حبان « بعد حولين » (٤) ثم ماذا أعطاه ؟ لقد أراد أن يرضيها فأعطاه غلاماً ، وقيل بستاناً (٥) . وأخبرها بذلك ولعله يريد أن يسألها هل رضيت ؟ « قالت له : لا أرضى حتى تشهد النبى ﷺ » لقد أرادت تثبيت هذا الحق وخاصّةً أن زوجها ماطلها مدة طويلة فكان يفكر ماذا يصنع ، ولم يسمع قبل ذلك فى أى مجلس من مجالس رسول الله ﷺ تحريم مثل ذلك . وهنا لم يتوقف بل انطلق يحمل ابنه الصغير حيناً ويتركه يمشى على قدميه حينا آخر وذهب به إلى رسول الله ﷺ وحكى له ما حدث وما طابته منه زوجته .

لقد كانت المفاجأة حينما سأله سيد العادلين ﷺ : « أأعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ » « أكُلَّ ولِدِك نَحَلْتَ مثله » ؟

سبحان الله سؤال غير متوقع ، وهل كانت عمرة بنت رواحة تتوقع ذلك ؟ لقد أجاب الصحابى : لا يا رسول الله . فيقول له ﷺ : « أشهد على هذا غيرى » « لا تشهدنى على جَوْر » « لا أشهد على جَوْر » .

ويأمره بتقوى الله تعالى والعدل بين الأولاد ، فيرجع بشير فيرد هذه العطية ، وإذا كان رسول الله ﷺ بَيَّن أن هذا يتنافى مع العدل فهل ترضى به عمرة بنت رواحة ؟

لا إنها لا ترضى بالظلم . ذلك أنها ممن بايع النبى ﷺ من النساء وقد مدحها قيس

(١) تهذيب التهذيب جـ ١ / ٤٦٤ وفتح البارى جـ ٥ / ٢٥١ .
(٢) تهذيب التهذيب جـ ١٠ / ٤٤٨ .
(٣) فتح البارى جـ ٥ / ٢٥١ .
(٤) السابق نفسه .
(٥) فتح البارى جـ ٥ / ٢٥٢ .

ابن الخطيم بقوله :

وعمرة من سَرَوَاتِ النساءِ تنفح بالمسكِ أرْدَانُها (١) .

وهكذا كانت هذه القصة درساً عمليا للتسوية بين الأولاد نزولاً على حكم الله ورسوله ، وتثبيتا للود بين الأبناء ، وطرداً للشحناء والبغضاء . وقد خطب النعمان بن بشير رضى الله عنهما بهذه القصة على منبر الكوفة ورواها عنه عدد كثير من التابعين .

---

(١) السابق نفسه وسَرَاةَ كل شيء أعلاه والجمع سروات ، ونفح بالمسك كذا فاح ، والأردان جوانبها .

صِدِّيق وشهيدان

عن قَتَادَة أنَّ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه حَدَّثَهُم أنَّ النبى ﷺ صَعِدَ أُحُداً وأبو بكر وعمرُ وعُثْمَان فَرَجَفَ بهم فَقَالَ : اثْبُتْ أُحُدُ فإنَّما عليك نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهِيدَانِ » (١) .

فنرى خطابه ﷺ لجبل أحد إذ أداة النداء محذوفة والتقدير : اثبت يا أحد ، وقد قال أيضا عنه « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه » (٢) . ونرى إخباره بأمر غيبى وهو شهادة عمَر وعثمان رضى الله عنهما .

١٩ ــ مصعب بن عمير فتى مكة ؟!

عن خَبَّابٍ رضى الله عنه قَالَ : هَاجَرْنَا مع النَّبى ﷺ ونَحْنُ نبتغي وَجْهَ الله فَوَجَبَ أجْرُنا على الله ، فمِنَّا مَنْ مَضَى ، أو ذَهَبَ لم يَأْكُلْ من أجره شيئاً كان منهم مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ ، قُتِلَ يوم أُحُدٍ فلم يتركْ إلا نَمِرَةً ، كُنَّا إذَا غَطَّيْنَا بها رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ وإذَا غُطِّيَ بها رِجْلاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ ، فقال لنا النبى صلّى الله عليه وسلم : غَطُّوا بها رَأْسَهُ ، واجْعَلُوا على رجليه الإِذْخِرَ ، أَوْ قَالَ : أَلْقُوا على رجليه من الإِذْخِرِ ، ومِنّا مَنْ أَيْنَعَتْ له ثَمَرَتُهُ فهو يَهْدِبها » (٣) سبحان الله فهذا مصعب بن عمير ابن الشرف والغنى والترف ، دخل الإسلام وباع نفسه لله ، وزهد فى متاع الدنيا الفانى ، وكان أول سفير في الإسلام يموت هكذا وبهذا الكفن الذى لا يعم جسده يرحل عن الدنيا إلى الآخرة ، ويوضع على رجليه بعض الحشائش لتغطيها . سلام عليه فى الخالدين وسلام عليه فى الأبرار والصديقين .

ويكفيه شرفاً حب رسول الله ﷺ له ومكانته عنده وما له من أيادٍ فى الإسلام . فالرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وبلاؤه فى الإسلام . لقد هاجر الهجرتين وأرسله ﷺ إلى المدينة ليعلم الناس القرآن ، وهو أول من جمع الجمعة بالمدينة وقد ورد أنه ﷺ قال : « ما

---

(١) البخارى كتاب المناقب باب فضائل أصحاب النبى ﷺ جـ ٥ / ١١ وصعد : علا . رجف : تحرك واضطرب .

(٢) البخارى كتاب المغازى جـ ٥ / ١٣١ ــ ١٣٢ .

(٣) البخارى كتاب المغازى جـ ٥ / ١٣١ وقد كرره فى جـ ٥ / ١٢٢ وجـ ٥ / ٧١ و ٧٢ و ٨١ . والنمرة : كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب . والإذخر : نبات ذكى الريح إذا جفَّ ابْيَضَّ . و (يَهْدِبُها) يجنيها .

رَأَيْتُ بمكّة أحسنَ لمَّةً ولا أرَقَّ حُلّةً ، ولا أنْعَمَ نعْمَةً من مُصْعَب » (١) فكيف انتقل من ترفه إلى زهده ؟!! وها هو لقد كتب له ربه الشهادة فى غزوة أحد ، وها هى صورته التى قدمها حديث البخارى شهيد ذو مكانة ليس له أكفانٍ من الحرير متنوعة الأشكال ، إنه يذهب إلى ربه ملفوفاً فى ثوبه القصير الذى يغطى رأسه وتنكشف رجلاه ، أو يغطى رجليه ليكشف وجهه . . وها هو رسول الله ﷺ يلقى عليه نظرة أخيرة ويأمرهم بما سبق .

لقد قرأت هذه القصة ذات ليلة والناس نيام والدنيا سكون فترقرقت عيناى بالدموع ولم أستطع أن أمسك نفسى فيا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة لطلبنا الآخرة وزهدنا فى عرض الدنيا الزائل ولما انخدعنا بمظاهر الدنيا : وما أجمل قول القائل :

لا تركَنَنَّ إلى الثيابِ الفاخرة ... واذْكُر عظَامَكَ حين تَبْلَى ناخرة
إذا رأيتَ زخـــارف الدنيـــا ... فقُلْ لبيك إن العيشَ عيشُ الآخرة

وحقاً إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . رضى الله عنهم أجمعين .

وإلى هنا يتوقف القلم مع وعد بتكملة لدراسة أخرى مع باقى قصص البخارى إن شاء الله تعالى ، اللهم علمنا وانفعنا بما علمتنا والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار .

---

(١) اللّمّة بالكسر : شعر الرأس إذا كان فوق الفروة . والحُلّة الثياب .

فهرس أهم المراجع

١ ـ **القرآن الكريم** .

٢ ـ **صحيح البخارى** : لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى (٩ أجزاء) فى ثلاثة مجلدات ، ط . دار الشعب .

٣ ـ **البيان النبوى** : للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ، ط . دار الوفاء بالمنصورة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

٤ ـ **تاريخ بغداد** : للخطيب البغدادى طبع القاهرة ، نشرة الخانجى ١٣٤٩ هـ .

٥ ـ **تفسير الطبرى** : (جامع البيان فى تفسير القرآن) المطبعة الخيرية بمصر ١٣٣٠ هـ . نسخة مصورة ، دار المعرفة ـ بيروت .

٦ ـ **تفسير القرآن العظيم** : للحافظ ابن كثير ، تحقيق عبد العزيز غنيم وعاشور البنا ، ط . دار الشعب بمصر ١٩٧١ م .

٧ ـ **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلانى (١٢ مجلداً) ، نشر دار الفكر العربى ، **مصورة** عن طبعة الهند .

٨ ـ **غريب الحديث** : لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، نشر دار الكتاب العربى ـ بيروت ، مصورة عن طبعة الهند .

٩ ـ **الفاخر فى الأمثال** : لأبى طالب المفضل بن سلمة ، تحقيق : عبد العليم الطحاوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

١٠ ـ **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** : للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى (١٤ مجلداً) ط . دار الريان بمصر سنة ١٩٨٦ م .

١١ ـ **فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى** : للشيخ عبد الله الشرقاوى ، ط . صبيح بالقاهرة ، سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م .

١٢ ـ **فقه السيرة** : للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، الناشر : مكتبة الدعوة الإسلامية ، ط السابعة .

١٣ ـ **فى ظلال القرآن** : للأستاذ سيد قطب (٦ مجلدات) ط . دار الشروق بمصر ، الطبعة التاسعة ١٩٨٠ م .

١٤ ـ **القامـوس المحيـط** : للعلامة مجد الدين الفيروزابادى (٤ مجلدات) الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م .

١٥ ـ **قصص القرآن** : للأستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، نشر دار التربية ـ بغداد .

١٦ ـ **مستقبل الإسلام خارج أرضـه** : للشيخ محمد الغزالى ، نشر مؤسسة الشرق بالأردن ، ط . الأولى ١٩٨٤ م .

١٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل** : المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت ، ط الثانية سنة ١٩٧٨ م .

١٨ ـ **معجم ألفاظ القرآن الكريم** : إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مجلد كبير ، نشر دار الشروق ـ مصر ، سنة ١٩٨١ م

١٩ ـ **المعجم الوسيط** : مجمع اللغة العربية بمصر ، ط الثالثة .

٢٠ ـ **الموطأ للإمام مالك بن أنس** : رواية يحيى بن يحيى ، ط . الحلبى ١٣٤٨ هـ ، وطبعة أخرى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢١ ـ **وفيات الأعيان لابن خلكـان** : تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، سنة ١٩٧٨ م .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ ـ ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

مكتبة الإيمان بالمنصورة